المكتبة الثقافية

٩٩

أقلام ثائرة

بقلم

حسن الشيخ

١٥ ديسمبر ١٩٦٣

المكتبة الثقافية

٩٩

أقلام ثائرة

بقلم

حسن الشيخ

وزارة
الثقافة والإرشاد القومى
المؤسسة
المصرية
العامة
للتأليف والترجمة
والطباعة والنشر

١٥ ديسمبر ١٩٦٣

توزيع



١٨ شارع سوق التوفيقية بالقاهرة

ت : ٥٥٠٣٢ ـ ٧٧٧٤١

بسم الله الرحمن الرحيم

من أدب الثورات

للإمام الشيخ محمد عبده فى وصف الأساليب الثائرة جولات ، أذكر منها على سبيل التمثيل بعض مقدمته لشرح كتاب « نهج البلاغة » قال : « ... فتصفحت بعض صفحاته ، وتأملت جملا من عباراته ، من مواضع مختلفات ، ومواضيع متفرقات ، وكان يخيل لى فى كل مقام ، أن حروبا شبت ، وغارات شنت ، وأن للبلاغة دولة ، وللفصاحة صـولة ، وأن للأوهـام عرامة [١] ، وللريب دعارة [٢] ، وأن جحـافل الخطـابة ، وكتائب الزرابة [٣] ، وعقود النظام ، وصفوف الانتظام تنافح بالصفيح الأبلج[٤] والقديم الأملج[٥] وتمتلج[٦] المهج ؛

(١) (شراسة .   (٢) فجور .
(٣) الفصاحة .
(٤) السيوف اللامعة .
(٥) الرمح المعتدل .
(٦) تمتص دم القلب .

بروائع الحجج ، وتفل دعارة الوساوس ، وتصيب مقاتل الخوانس [1] ، فما أنا الا والحق منتصر ، والباطل منكسر ، ومرج الشك فى خمود ، وهرج الريب فى ركود ؛ وأن مدبر تلك الدولة ، وباسل تلك الصولة ، هو حامل لوائها الغالب ، أمير المؤمنين على بن أبى طالب — الى أن يقول :

« .. كأنى أسمع خطيب الحكمة ينادى بأعلياء الكلمة ، وأولياء أمر الأمة ، ما يعرفهم مواقع الصواب، ويبصرهم مواضع الارتياب ويحذرهم مزالق الاضطراب، ويرشدهم الى دقائق السياسة ، ويهديهم طريق الكياسة ويرتفع بهم الى منصات الرياسة ، ويصعدهم شرف التدبير ، ويشرف بهم على حسن المصير .

* * *

هذا ما اقتبسته من كلام الأستاذ الامام الذى صور فيه خواطره الثائرة بعد قراءته كتاب (نهج البلاغة) المنسوب للامام على ، وقد رأيت انه يغنى عن أية مقدمة لكتاب (أقلام ثائرة) .

المؤلف

---

(١) خواطر السود .

القلم واللسان

قضية مسلمة الثبوت فى واقعيتها : القلم أحد اللسانين :

فالقلم واللسان كلاهما يترجم عما تكن الأفئدة وتخفى الصدور . والكلام عن الأقلام الكاتبة هو التحدث عن الألسنة الناطقة . ولا يختلفان الا فى صورة الآداء ، فالقلم كاتب واللسان ناطق ، والكتابة والنطق على سواء فى الافادة والاستفادة .

لنا فى تاريخنا المعاصر ثورتان لم يكن فيهما أقلام كاتبة ولكن كان فيهما ألسنة ناطقة . ثورة الشعب على الفرنسيين عام ١٨٠١ وثورته على الانجليز عام ١٨٠٧ .

هاتان الثورتان لم تقوما على أقلام كاتبة وانما قامتا على ألسنة خاطبة ، ونفوس متحررة ، وثورات ؛ وفورات ؛

الى أن انتهى الأمر بانتصار الشعب فى كلتيهما — انتصارا مبينـا .

كان زعماؤهما هم شيوخ الأزهر وعلى رأسهم السيد عمر مكرم نقيب الأشراف ، ولم يكن فى البلاد مطابع ، وبالطبع لم يكن فيها صحف ، ولذلك كانت أدوات هذه الثورة فى الدفاع عن الشعب وحقوقه — اما أن يركب المشايخ جماعات يقصدون بيوت الحكام ، مظهرين لهم غضب الشعب تارة ، وتارات أخرى الخطابة فى الأزهر ، والهياج فى الشوارع ، واغلاق الحوانيت ، والتجمعات المستمرة فى كل مكان . ولا ننسى ان الفرنسيين قد دخلوا الأزهر بخيولهم ، ليمنعوا الأقوام من الخطابة ومن التجمع فيه ، كما لا ننسى أن السيد عمر مكرم نزل من القلعة ذات يوم وهو يحمل بيرقا بيده ، ليحمس النـاس ويثير فى نفوسهم الحمية ، ولشدة تأثر الأقوام المجتمعة حول السيد — بهذا المنظر الوطنى الكريم — سموا هـذا البيرق « البيرق النبوى » وهى تسمية فيها قداسة ، وفيها تشجيع على احتمال المكاره فى سبيل الوطن .

كان فى هذا العهد أدباء أمثال اسماعيل الخشاب ،

وحسن العطـار ، وعبد الرحمن الجبرتى الذى وصف أدبهما بأنهما كانا يقطعان الليــل فى منزله فى مطارحات غزلية وفكاهية .

ان الخطابة التى كانت هى الأولى من أدوات ذلك العهد ، ليس لها أثر من نصوصها غالبا ، لأنها كانت عبارات مرتجلة تلقى عفو الخاطر فى المناسبات .

لم تبق لنا الأيام من هذا العهد الثائر الا بعض الرسائل التى كانت ترسل من بعض الوطنيين فى البلاد الثائية — الى بعض الزعماء فى القاهرة ، مثل ما روى الجبرتى عن مكاتبة السيد حسن كريت نقيب أشراف رشـيد الى السيد عمر .

« فى يوم الخميس غاية محرم « سنة ١٢٢٢ هـ » ورد مكتوب من السيد حسن كريت نقيب أشراف رشـيد والمشار اليه بهـا يذكر فيه ، أن الانجليز لما أوقع بهـم برشيد ، ورجعوا فى هزيمتهم الى الاسكندرية ؛ استعدوا وحضروا الى ناحية الحماد قبلى رشيد .. ونرجو الاسعاف والامداد بالرجال ؛ والجبخانة ، والعدة والعدد ، وعدم التأنى والاهمال » .

كانت المساجد فى القاهرة والأرياف ، مثل مساجد رشيد ودمنهور ودمياط وكفر الدوار — كالأزهر ، مثابة للثوار ، وميدانا لخطبائهم وشعرائهم .

وعلى هذا النحو مر ّ هذا الدور الكريم ، الذى يعتبر بحق أول الأدوار الثورية فى تاريخ مصر الحديث، وبحسبه أنه أجلى المغيرين من الفرنسيين والانجليز على التعاقب — قبل أن ترسخ أقدامهم فى أرض الوطن ، فلم يهنأوا فيه بالراحة يوما ، كما هنأ الانجليز فى بلادنا بعد الثورة العرابية أزمانا .

* * *

مما يقفنا على روح ذلك العهد الوطنية — فحوى ما خاطب به نابليون — السيد محمد كريم حاكم الاسكندرية بعد أن احتلها الفرنسيون ، وبعد أن أسرّوا هذا الرجل الوطنى الكبير .

« قد أخذت سلاحك بالسيف ، وقد كان لى أن أعاملك معاملة الأسير ، لأننى أخذتك بعد أن دافعت عن نفسك ما استطعت. ولكن بما أن الشجاعة حليفة الشرف،

فانى أعيد اليك سيفك على أمل أن تكون مساعدا أمينا للجمهورية الفرنسية » .

وكذلك ما خاطب به السيد عمر مكرم ، أحد مستشارى خورشيد « باشا » الوالى التركى ، بعد أن انتهى عهد الفرنسيين فى مصر ، وبعد استبداد العثمانيين بالحكم ثانيا ، وقد أراد السيد عمر عزل هذا الوالى ، فدار بينهما الحديث الآتى : —

قال هذا المستشار للسيد عمر :

« كيف تعزلون من ولاه السلطان عليكم ، وقد قال تعالى ، أطيعوا الله والرسول وأولى الأمر منكم » .

فأجابه السيد عمر :

« أولو الأمر هم العلماء وحملة الشريعة ، والسلطان العادل ، وهذا رجل ظالم ، وقد جرت العادة من قديم الزمان أن أهل البلاد يعزلون الولاة ، وهذا شىء مألوف، حتى الخليفة والسلطان اذا سار فى الناس بالجور فانهم يعزلونه ويخلعونه » .

* * *

عهد محمد علي

لم نعرف الأقلام الثائرة ، والنفوس المتحررة ، في تاريخنا الحديث الا قبيل الثورة العرابية ، في أعقاب عهد اسماعيل ، لما أن ضعف وذل ، وتبدلت أحواله ، وبذر بحمقه بذور الثورة العرابية .

ويلجئني الحديث في عهد اسماعيل ، الى الحديث عن عهد جده محمد علي ، فهما متشابهان في أساليب الحكم، وفي الخوف من الأدب الثائر ، على فروق يسيرة ، بينهما لا تؤثر على هذا التشابه في الاتجاه والمقاصد .

* * *

أمامي في ابتداء حديثي عن عهد محمد علي بحث للأمام محمد عبده [1] ، كتبه عام ١٩٠٢ ، أي قبل وفاته

---

(١) الجزء الثاني من تاريخ الأستاذ الامام للسيد رشيد رضا .

بثلاثة أعوام ، فهو آخر رأى له فى حكم هذا الحاكم من جميع نواحيه .

ولهذا البحث القيم قصة :

فقد أراد الخديوى عباس أن يحتفل بذكرى مرور مائة عام على تأسيس جده محمد على الدولة المصرية ، ورأى أن يكون الاحتفال بهـذه الذكرى فى المساجد ، ليعطيها الصبغة الدينية والجلال ، فكتب الشيخ الامام بحثه عن دراسة وتعمق ؛ ليعرف الناس من هو هذا الذى يريد حفيده أن يكرم ذكراه فى مساجد الله .

وفى هذا المقال الطويل يقول :

« ما الذى صنع محمـد على ؟ لم يستطع أن يحيى ولكنه استطاع أن يميت » .

« لم يـُبق فى البلاد رأسا يعرف نفسه حتى خلعه عن بدنه ، أو نفاه الى السودان مع بقية بلده فهلك فيه » .

« ... لم يبق فى البلاد الا آلات له يستعملها فى جباية الأموال ، وجمع العساكر بأية طريقة ، ومحق بذلك جميع عناصر الحياة الطيبة ، من رأى وعزيمة ، واستقلال نفس» .

* * *

« صغرت نفوس الأهالى بين أيدى الأجانب بقـوة الحاكم ، وتمتع الأجنبى بحقوق الوطن التى حرم منها ، وانقلب الوطنى غريبا فى داره ، غير مطمئن الى قراره ؛ فاجتمع على سكان القرية ذلان ، ذل ضريبـة الحكومة الاستبدادية المطلقة ، وذل سامهم الأجنبى اياه » .

* * *

« أرسل جماعة من طلاب العلم ، الى أوربة ليتعلموا فيها ، فهل أطلق لهم الحـرية فى أن يبثوا فى البـلاد ما استفادوا ؟ كلا . ولكنه استعملهم آلات تصـنع له ما يريد ، وليس لها ارادة فيما تصنع » .

* * *

« وجد كثير من الكتب المترجمة فى فنون شتى ، من التاريخ والفلسفة والأدب ولكن هذه الكتب أودعت فى المخازن ، من يوم أن طبعت وأغلقت عليها الأبواب الى أواخر حكم اسماعيل ، فأرادت الحكومة تفريغ المخازن منها...فنشرتها بين الناس فتناول منها من تناول، وهذا يدلنا على أنها ترجمت برغبة بعض الرؤساء الأوربيين الذين أرادوا نشر آدابهم فى البلاد ولكنهم لم ينجحـوا لأن

حكومة محمد على لم توجد فى البلاد قراء ، ولا منتفعين بتلك الكتب والفنون » .

* * *

« أخذ ما كان للمساجد من الرزق وأبدله بشىء من النقد يسمى « فائض روزنامه » لا يساوى جزءا من الألف من ايرادها ، وأخذ من أوقاف الجامع الأزهر ما لو بقى الى اليوم ؛ لكانت غلته لا تقل عن نصف مليون جنيه فى السنة »

* * *

ان ظواهر حكم محمد على مغرية بمدحه والثناء عليه ، ولكن التعمق يقف فى سبيل هذا المدح المطلق ، وقد فطن الى ذلك مؤرخ قوميتنا الأستاذ الكبير عبد الرحمن الرافعى ، فانه بعد أن استوعب تاريخ محمد على بحثا ودرسا وتفصيلا — انتهى من ذلك الى كلمة ختامية أذكر منها ما نصه : —

« على أنه من الواجب أن نذكر هنا اثباتا للحقيقة من جميع نواحيها أن الشعب لم يتحرر من الشقاء فى عهد محمد على ، فقد وقع فيه ارهاق ومظالم كثيرة ، ويحق لنا

أن تقول من هذه الناحية ان أعمال الاصلاح التى تمت فى عصر محمد على لم ينتفع بها الجيل الذى عاش فى ذلك العصر ، بل انتفعت بها الأجيال التى توالت من بعده . أما جيل محمد على فقد فدحته أعمال السخرة والارهاق ولم يتذوق طعم الحرية الشخصية ولا حـق الملكية . فلعلك تذكر أن محمد على قد تملك أراضى مصر ، ووضع نظام احتكار الحاصـلات الزراعية وبيعها ، كما احتكر التجارة والصناعة ، وقد أساء هـذا النظام الى الشعب اساءة كبرى ؛ لأنه ضرب عليه حجابا من الفقر والجمود ، وصارت الحكومة هى المالكة لكل أطيان القطر المصرى وحاصلاته وتجارته وصناعته .. وعلى تعدد مشاريعه فى الاصلاح لم يفكر تفكيرا جديا فى ايجاد نظام للشورى يعود الشعب الاشتراك فى الحكم .. » .

هذان رأيان لهما قيمتهما العالية فى حكم محمد على ، أولهما لامام متبع ، وثانيهما لمؤرخ حجة كبير .

* * *

ماذا كان ينتظر للأدب فى هذا العهد ؟ لم يكن ينتظر له الا أن يكون كما قال الدكتور أحمد أمين — فى الغزل

والشكر والمدح والأخوانيات والاستعطاف والاعتذار ، وهلم جرا ..

لم نكن ننتظر من الأقلام الا ذلك فى عهد نفى فيه المستبد الأكبر محمد على — شيخا كبيرا أجلسه على عرش مصر بعد أن سلمه بيده مقاليد الحكم فجزاه جزاء سنمار .

لقد نفى السيد عمر مكرم غداة أن ألبسه بيده فرو الملك وقفطان الحكم فى حفل شعبى كبير .

كان حوالى عصر محمد على أدباء أذكر منهم على سبيل التمثيل اسماعيل الخشاب ، وحسن العطـار ، ورفاعة الطهطاوى وعبد الرحمن الجبرتى وعلى أبو النصر وصفوت الساعاتى وعلى الدرويش وغيرهم على تفاوت فى أعمارهم بين أول عهد محمد على وبين آخره .

انها لجمهرة صالحة من الأدباء لو وجدت أضأل شعاع من السماح لها بحرية القول لكان أغلب الظن بها أن تدافع عن شعبها الذى تملكه محمد على تملكا وصفه كلا الرجلين الذين أسلفت وصفهما لعهد هذا الحاكم .

عدمت مصر الزعامة الشعبية فى عهـد محمد على .

هذه الزعامة التى كانت لشيوخ العصر وفى مقـدمتهم السيد عمر مكرم ، عدمتها بنفى هذا السيد ، وبتفريق كلمة الباقين منهم بالاصطناع الكاذب والحيل الخادعة .
وقد وصف الامام محمد عبده ذلك الاصطناع بقوله :
« وقصارى أمره فى الدين أنه كان يسـتميل بعض العلماء بالخلع ، أو اجلاسهم على الموائد لينفى من يريد منهم اذا اقتضت الحال .. » .

* * *

لم يكن من بين أدباء ذلك العصر من رأينا له أدبا فى القومية أو فى تحرر الوطن من مظـالم حاكمه ، اللهـم الا ما قاله الطهطاوى فى حب الوطن وامتداح الجيش ، والأدب على هذا الوضع لا يغنى شيئا عن حالات هـذا الشعب المرهق الذى كان يعد فلاحوه دواب مسخرة ، حتى كانت كلمة « فلاح » أوضح وصف يدل على الضعة والمهانة والموت جوعا وعريا ومرضا قتالا .
رفاعة الطهطاوى هو دون منازع — مؤسس بنـاء النهضة العلمية فى مصر بما ألف وترجم هو وتلاميذه الذين تخرجوا عليه ، ولو لم يكن عهد محمد على عهد جبروت

لرأينا لهذا الرجـل أدبا ثائرا على المظالم النازلة بهذا الشعب ؛ لأنه تعلم فى فرنسا يومئذ . وهـو بذلك كان على علم بحقوق الشعب على حاكمه . ولكنـه لم يستطع القـول لأنه هو وجميع زمـلائه كانوا مسلوبى الارادة ، فاقدى الاختيار .

على أية حال أذكر لهذا الأديب بعض ما قاله : أولا فى محبة الأوطان ، وثانيا : فى وصف الجيش .

من قصيدة له وهو بباريس يحن الى وطنه :

ناح الحمام على غصون البان
فأباح ذكـر متيم ولهـان

الى أن قال : —

ولئن حلفت بأن مصر لجنـة
وقطوفها للفـائزين دوانى
والنيـل كوثرها الشهى شرابه
لأبر كل البر فى أيمـانى

ومما قاله فى هذا المعنى وهو بمصر : —

يا صاح حب الوطن   حليـة كل فطن
تحيـة الأوطـان   من شـعب الأيمـان

وقال فى وصف الجيش المصرى : —

ينظم جنـدنا نظمـا عجيبا يعجز الفهمـا
بأسد ترعب الخصما فمن يقـوى يناضلنا

وله أيضا نثر فى هـذا المعنى لا أرى داعيا لذكره استغناء بما ذكرته من شعره .

هـذا هو اللون الذى رأينـاه من أسلوب أدب الطهطاوى حامل لواء العلم والمعرفة الأول فى بلاده ، وقد عدّ أدبه هذا المؤرخ الكبير الأسـتاذ الرافعى من أدب الوطنية وعـد صاحبه من أدباء الحرية .

* * *

وأعود فأقول ان أصحاب الأقلام فى عهد محمد على كانوا يعرفون جيـدا أنه أجلس على عرش مصر بارادة الشعب الممثل فى زعمائه ، الذين اعتقدوا فيه أنه سيكون الحاكم العادل لكثرة اغرائه لهم بأساليبه المختلفة وحيله البارعة ، وبهذا المقتضى كانوا يعتقدون أن هذا النوع من الحكم هو العدل الملطف أو هو الحكم الذى يجب أن يكون فى هذه الحالة الانتقالية .

* * *

عهد إسماعيل

ابدأ حديثى عن عهد اسماعيل بما وصفه به الأمام محمد عبده .

« هذه كانت شدائد مهلكة ، وظلمات حالكة ، يضل فيها الرشيد ، ويتعثر فيها العزم الشديد ، ولكن كان يلوح من خلالها ضياء لو كمل ظهوره لانتشر نوره ، واهتدى به الضال وحسن به الحال ..

ذلك أن أهالى مصر قبل سنة ١٢٩٣ هـ « سنة ١٨٧٧ م » كانوا يرون شئونهم العامة بل والخاصة ملكا لحاكمهم الأعلى ، ومن يستنيبه عنه فى تدبير أمورهم يتصرف فيها حسب ارادته ، ويعتقدون أن سعادتهم وشقاءهم موكولان الى أمانته وعدله ، أو خيانته وظلمه، ولا يرى أحد منهم لنفسه رأيا يحق له أن يبديه فى ادارة بلاده ، أو ارادة يتقدم بها الى عمل من الأعمال يرى فيه صلاحا لأمته ، يصرّفون فيما تكلفهم الحكومة

به ، وتضربه عليهم ، وكانوا فى غاية البعـد عن معرفة ما عليه الأمم الأخرى ، سواء كانت اسلامية أو أوربية . ومع كثرة من ذهب منهم الى أوربا وتعلم فيها من عهـد محمد على باشا الكبير الى ذلك التاريخ الذى ذكرناه ، وذهاب العـدد الكبير منهم الى ما جاورهم من البلاد الاسلامية أيام محمد على وابراهيم — لم يشعر الأهالى بشىء من ثمرات تلك الأسفار ، ولا فوائد تلك المعارف التى اكتسبت بها ، ومع أن اسماعيل باشا ابتدع مجلس الشورى فى مصر سنة ١٢٨٣ هـ وكان من حقه أن يعلم الأهالى أن لهم شأنا فى مصالح بلادهم ؛ وأن لهم رأيا يرجع اليهم فيها — لم يحسّ أحد منهم ولا من أعضاء المجلس أنفسهم بأن لهم ذلك الحق الذى يقتضيه تشكيل هذه الهيئة الشورية ؛ لأن مبدع المجلس قيده فى النظام والعمـل .

أما فى النظام فلأنه قد نص فيه على أن نظر المجلس منحصر فيما تراه الحكومة من خصائصه ؛ وما يعن لها أن ترسله اليه للمداولة . وأما فى العمل فانه كان يرسل من قبله عند المداولة من يخبر الأعضـاء بارادة جنابه

فيقررون ما يريد بعد مداولة صورية ، وكانوا يشعرون بأن الارادة المطلقة هي التى كانت ولا تزال تصرفهم فى آرائهم . هل كان يمكن لأحـد أن يعمـل على خلاف ما يؤمر به .. ؟ هل كان يمكن لشـخص أن يميل عن الطريق التى رسمت له ... كلا فانه كان بجانب كل لفظ نفى عن الوطن أو ازهاق للروح أو تجريد من المال » .

* * *

ويكتب لنا الدكتور أحمد أمين تعليقـا على ذلك بقوله :

« وكان الأدب ظلا لهذا الموقف وصورة صادقة لهذا المنظر ، فأدباء مصر أمثال السيد على أبو النصر والشيخ على الليثى وعبد الله « باشا » فكرى ـ تتصفح آثارهم فماذا ترى .. ؟ غزلا فى حبيب أو رسالة الى صديق ، أو مدحا فى أمير ، أو استعطافا له ، أو اعتذارا اليـه ، أو وصف سفينة أو شكرا على هدية . أما مصر وحالة شعبها وبؤس قومها وذل حكامها ، وحقوق النـاس وواجبات الحكومة فلا تعثر منها على شىء » .

* * *

فتح اسماعيل باب اصدار الصحف الشعبية ، وأغدق على أصحابها العطاء ، فسبحت بحمده ، وصورت سيئاته حسنات ، وكانت هى أداته فى الدفاع عن مساوئه سواء فى ذلك صحف مصر وسورية أو بعض صحف الخارج التى استأجرها بمال الأمة .

كان فى عهده كتاب أفاضل ولكن سيف الأرهاب كان يلمع مخيفا على نحو ما يقول المؤرخ جورجى زيدان :

« ... لكن هيبة اسماعيل كانت تحول دون تهورها وخصوصا من حيث (النزالة) الأجانب لأنه كثير الاكرام للجالية من كل بلد .. وكان الوطنيون قد تنبهوا للجامعة العربية وفهموا من الصحف وما بثه الأفغانى من روحه — فى أدباء مصر وكتابها وخطبائها — ما لهم من الحقوق — ولكنهم كانوا يتحدثون همسا ، وسرا خوفا من سطوة اسماعيل .. ؟؟

كان منهم عبد الله أبو السعود صاحب جريدة « وادى النيل » وكانت من صحف اسماعيل الخاصة ، أنشئت عام ١٨٦٧ . ومنهم الكاتب الأديب الكبير ابراهيم

المويلحى صاحب جريدة « نزهة الأفكار » المنشأة عام ١٨٦٩ بالأشتراك مع القصاص الكبير عثمـان جلال ، ولكن بطانة السوء لما رأت منها ميلا الى اتجاه سـبيل ضيقة من حرية القول أغرت بها اسماعيل فعطلها ولم يصدر منها الا عددان .

هذه البطانة هى التى يصفها البارودى بقوله : —

قامت به من رجال السـوء طائفـة
أوهى على النفس من بؤس ومن ثكل
من كل وغـد يكاد الدست يدفعـه
بغضـا ويلفظـه الديوان من مـلل
ذلت بهم مصر بعـد العـز واضطربت
قواعـد الملك حتى ظـل فى خـلل

الى أن يقول :

فبادروا الأمر قبل الفوت وانتزعوا
شكالة الريث فالدنيـا مع العجـل
وطالبوا بحقـوق أصبحت غرضـا
لـكل منتزع سـهما ومختتـل

حتى تعـود سـماء الأمن صـافية
ويرفل العـدل فى صاف من الحلل

ومنهـم أديب اسـحاق صـاحب جـريدتى « مصر والتجارة » وقد لحقهما التعطيل . فرأى بعض الوطنيين ، ومنهم شريف باشا أن ينتقل أديب الى باريس ، وهناك يصدر جريدة مصر القاهرة ، وتصدر هذه الجريدة بهذه الافتتاحية : « أروم مقاومة البـاطل ، ونصرة الحق ، والمدافعة عن الشرق وآله ، وعن الفضل ورجاله ، وأن أجلو مبادىء الحرية ... ومقصدى أن أثير بقية الحمية الشرقية ، وأهيج فضالة الدم العربى ، وأرفع الغشاوة عن أعين الساذجين ، وأحيى الغيرة فى قلوب العارفين ، ليعلم قومى أن لهم حقا مسلوبا فيلتمسوه ، ومالا منهوبا فيطلبوه ، وليخرجوا من خطة الخسف ، وينبذوا عنهم كل مدلس يشـترى بحقوقهم ثمنا قليلا ، ويذيقوا الخائنين عذابا وبيـلا ، ويستصغروا الأنفس والنفائس فى جنب حقوقهم ، وليستميتوا فى مجاهدة الذين يبيعون أبدانهم وأموالهم وأوطانهم وآلهم .. فمن قتل دون دمه فهو شهيد ، ومن قتل دون ماله فهو شهيد ، ومن قتل دون

أهله فهو شهيد ، ومن عاش بعد هؤلاء الشـــهداء فهو سعيد » .

وجاء فى أول عدد منها أيضا : —

« الحمد لله وحده ، هـــذه صـــحيفة مصر ، طواها الاستبداد فماتت شهيدة ، ثم أحيتها الحـــرية فعاشت سعيدة ، ترسل الى المريدين والأولياء ، منهية اليهم أن قد أتانى الله نعمة الحرية ، ومن أوتى هذه النعمة فقد أوتى خيرا كثيرا ، ولسوف ترون منى رواية الصادق ، فى رأى الآمل ، فى عزم الآيس ، حاول رياض باشا المتصدر فى بلاد مصر اطفاء نورى ، وأبى الله الا أن يتـــم نوره ولو كره الظالمون » أماتنى بدعوى الحرص على الخواطر أن أثيرها للفتنة ، بل خاف أن أكشف الحجاب عن حقيقة أحواله ، فزعم أنى ناصبته الشر نفرة منه وتشيعا لسواه ، وما أنا فى شىء من ذلك ، فانى أعز نفسا وأنبل قصدا من أن تستميلنى الأشخاص ، وانما أميل مع المقاصد ، فما كان منها ملائما للمشرب الذى أحسه حقا .

فذلك من دون المشارب مشربى
وذلك ما بين المـــذاهب مذهـــبى

وأما ما كان منها مغايرا للمبدأ الذى أراه عدلا :

رميت به من حـــالق رمى حـــانق
متى يرم لم يخطىء وان يبغ يدأب »

ومنهم يعقوب صنوع صاحب جريدة « أبو نظارة » وهى جريدة هزلية لاذعة وقد عطلت عن الظهور باغراء الحاشية ، فرحل صاحبها الى باريس فأبدع فى هزلياته هناك تجريحا فى حكم اسماعيل . فيقول — مثلا — على لسان الخديوى اسماعيل وهو يحدث نفسه بعد أن كثرت همومه واهتز العرش من تحته وأصبح خائفا فزعا .

« راحت عليك يا أبو السباع ، آه . الله يلعن اليوم اللى توليت فيه شيخ حارة ، ده كان يوم نحس ، وأنا كان مالى ومال الشبكة دى اللى زى الطـين ، المكتوب على الجبين تراه العيون ، تعمل ايه فى طمـع الدنيـا أدينى أصبحت أشقى مخلوقات الله ، والخوف قاتلنى ، مائتين عسكرى ومدفعين حول سرايتى وبرضه مرعوب ، وكل ما أسمع حد قابل علىّ اتفزع ، وقلبى يطب ، وأقول فى نفسى أهم ضباط الجهادية ، وتلامذة المدارس ، وأولاد البلد ، والفلاحين ، جايين ينتقموا منى ، ويقبضوا روحى

ويأخذوا مفاتيح السهاريج ، وينهبوا الأموال اللى لميتهم
بغاية التعب والمشقة .. آه . أنا سامع تشخير الأغوات —
يا بختهم دول مبسوطين ، ولا هم عارفين الدنيا بتعمل ايه ،
والناس اللى ما تفهمش الصورة ايه تقــول عليهم دول
مساكين لكونهم محرومين من لذات الدنيا . آه يا مغفلين
والله ما حد محروم غيرى أنا لكونى ما بستلذ لا بالأكل
ولا بالشرب من خوفى أن خدامينى يسمونى .. » الى غير
هؤلاء ممن حطمت أقلامهم ، وحبست أفكّارهم ، فاما أن
يرحلوا الى بلد آخر آمنين ، واما أن يبقــوا فى بلادهم
لا يكتبون ولا ينطقون ؛ الا اذا كانوا مداحين ؛ لحكم
اسماعيل .

* * *

رأينا من الأدباء فى عهد اســماعيل من يســتعملون
المواربة فى أدبهم مخــافة بطش اسماعيل بالأحــرار ،
ولكنهم عبروا عن مقاصدهم بأساليب غاية فى الطرافة .
كما فعل شيخ الشعراء اسماعيل صبرى فى شبابه حين

قال شعرا وصفه بأنه فى « الدواة » ولكنه فى غير الدواة . انه ثورة على حكم اسماعيل .

قال صبرى :

واذا الظلم والظلام استعانا

يوم نحس بأجهل الجاهلينا

واستمدوا من الشرور مدادا

فاجعليه فى قسمة الظالمينا

الى أن قال :

واذا كان فيك نقطة سوء

كونت من خيانة تكوينا

فاجعليها قسط الذين استباحوا

فى السياسات حرمة الأضعفينا

* * *

لعهد اسماعيل حسنة واحدة على الأدب . هى أنه طاوع من أشاروا عليه بانشاء صحيفة « روضة المدارس » لتثقيف التلاميذ من أقرب الموارد الثقافية ، وقد وضع

ادارتها العامة فى يد على مبارك باشا ، ورياسة تحريرها لرفاعة الطهطـاوى ، فكانت ميــدانا للأدب والتاريخ وما اليهما .

وبحسبنا أن نعرف أبرز محرريها لنعــرف عن بينة رسالتها ؛ كان يحررها : على مبارك . رفاعه الطهطاوى . عبد الله فكرى . الشيخ حسونة النواوى . الشيخ حسين المرصفى . محمود الفلكى . محمد قدرى . الشيخ حمزه فتح الله ، وأمثالهم .



جمال الدين الأفغانى



عبد الله نديم



محمد عبده



عبد العزيز جاويش

هؤلاء الأعلام هم اللذين أتحدث عنهم فى أقلامهم الثائرة ·

جمال الدين الأفغانى

١٢٥٤ ـ ١٣١٤ هـ
١٨٣٩ ـ ١٧٩٧ م

أفغانى الأصل ، شريف النسب ، ينتهى نسبه الى الحسن بن علـى ، جمع الى شرف النسب وجاهة ، فقد كان أهل بيته سادة على عمل من أعمال الأفغان . تعلم كأهل زمانه فى بلاده على طريقة تشبه الطريقة الأزهرية ، ولا تمتاز عنها الا بالتوسع فى دراسة الفلسفة الاسلامية والتصوف ، كما درس فى الهند الرياضة على الطريقة العصرية ، وساح سياحات طويلة فى الأقطار الاسلامية فاكتسب بذلك خبرة بحياة الشرق والشرقيين ، كما تعلم الفرنسية على كبر فى ثلاثة أشهر وقد ازداد بها علما أثناء اقامته بباريس يصدر هو والشيخ محمد عبده « العروة الوثقى » .

أعد نفسه لرسالته فى تحرير الشرق ، فلم يرتبط بأسره

ولا بأى قيد من قيود الحيـاة ، وقد بلغت به فلسـفته الروحية أن كانت تكفيه أكلة واحدة فى اليوم ، ولكنه يفرط فى التدخين والشاى ، وقد أعد نفسه للنفى فى أى لحظة ، لا يخافه ولا يرهبه ، ملابسه على جسمه ، وكتبه فى صدره ، وآلامه فى قلبه ، وما يشغله فى رأسه ، سليم القلب ، كريم يبذل كل ما فى يده الى أن يدنو أحد ليلمس شرفه أو دينه ، أو يقف له فى طريق أداء رسالته ، فاذا به هدّار ، غضاب ، وأسد وثاب ، قوى الاعتماد على الله لا يبالى ما تأتى به صروف الدهر .

* * *

ولست أخالف عادتى فى كل ما أكتب ، اذا وجدت رأيا للامام محمد عبده صدرت به قولى وحافظت على نصوصه.
وصف الامام عصر جمال الدين فى بحث طريف من طرفه قال الامام بعنوان « ابتداء النهضة المعنوية فى مصر » .

« جاء الى هذه الديار سنة ١٢٨٦ هجرية رجل غريب بصير فى الدين ، عارف بأحوال الأمم ، واسع الاطلاع ، جم المعارف ، جرىء القلب ، وهو المعروف بالسيد جمال الدين الأفغانى ، وتعرف اليه فى بادىء الأمر بعض طلبة

العلم ، ثم اختلف اليه كثير من الموظفين والأعيـان ، ثم انتشر عنه ما تخالفت آراء الناس فيه من أفكار وعقائد ، فكان ذلك داعيا لطلب الاجتماع به لتعرّف ما عنده ، ثم اشتغل بالتدريس ببعض العلوم العقليـة ، فكان يحضر دروسه كثير من طلبة العلم ، وتردد على مجالسه كثير من العلماء وغيرهم ، وهو فى جميع أوقات اجتماعه مع الناس لا يسأم من الكلام فيما ينير العقل ، أو يطهر العقيدة ، أو يذهب بالنفس الى معالى الأمور ، أو يستلفت النظر فى الشئون العامة مما يمس مصلحة البلاد وسكانها .

« وكان طلبة العـلم ينتقلون بما يكتبونه من تلك المعارف الى بلادهم أيام البطالة ، والزائرون يذهبون بما ينالونه الى أحيائهم ، فاستيقظت مشاعر ، وانتبهت عقول ، وخف حجاب الغفلة فى أجزاء متعددة من البلاد ؛ خصوصا فى القاهرة .

« كل ذلك والحاكم القوى فى علوّ مكانه أرفع من أن يناله هذا الشعاع فى ضعف شأنه ، ولا يزال هـذا الشعاع يقوى بالتدريج البطىء ، وينتشر فى الأنحاء على

غير نظام ، الى أن نشبت الحرب بين الدولة العثمانيــة ودولة الروس سنة ١٢٩٣ هجرية .

« وجد الناس من أنفسهم لذة فى الاطــلاع على ما يكون من شأن الدولة العثمانية صاحبة السيادة عليهم مع دولة روسية ، فتطلعوا الى ما يرد من أخبار الحرب ، وكثرة الأجانب فى البلاد سهلت ورود الجرائد الأوربية الى طلابها من الأوربيين ، ومخالطتهم للعامة والخاصة مهدت الطريق الى العلم بما فيها ، فزاد تشوق الناس الى الوقوف على حوادث تلك الحرب ، وسرى هذا الشعور الى بعض الجرائد العربية التى كانت لا تزال الى هــذا العهد قاصرة على ما لا يهم ، فانطلقت فى ايراد الحوادث ونشرها .. ثم استحدثت جرائد كثيرة لمباراة ما سبقها فى نشر الأخبار .. واندفعت الرغبات الى الاشتراك فيها الى حد لا يمكن منعه ، وقضى سلطان الوقت على سلطان الارادة القاهرة .

« لم يكن ما ينشر فى الجرائد مقصورا على حوادث الحرب ، بل اجترأ الكثير منها على نشر ما عليه سائر الأمم فى سيرتهم السياسية والمعاشية ، وزادوا على ذلك

نشر ما كان قد بدأ فى الحكومة المصرية من سوء الأحوال المالية .. وأخذ الشيخ جمال الدين فى حمل من يحضر مجلسه من أهــل العلم وأرباب الأقلام — على التحرير وانشاء الفصول الأدبية والعلمية فى مواضيع مختلفــة لا تخرج جامعتها عن اصلاح الأفكار وتهذيب الأخلاق ، فتسابقت الى ذلك الكتاب ، وتبارت الأقلام ، وأخذت الحرية الفكرية تظهر فى الجرائد الى درجة يظن الناظــر اليها أنه فى عالم خيال ، أو أرض غير أرض الخبال .. » .

تدرج بنا الامام فى هذا القول من حــالة الصحف الخرساء الى حالة الصحف الناطقة بأهم الأحداث العالمية يومئذ ، وبحقوق الشعب وواجباته .

تدرج بنا من حالة أقلام كانت عدما مطلقا الى أقلام جديدة تنشىء الفصول ، وتكتب المقالات ، وتعبر أحسن تعبير عن شئون شعبها .

تدرج بنا من جمال الدين الغريب عن هذه الديار ، الى جمال الدين الذى اندمج فى البيئة المصرية وصار فيها اماما ومعلما ومرشدا وقدوة . فى تحرير هذا الشعب .

تدرج بنا فى كل ذلك لا تدرج من قرأ أو سمع ، بل

تدرج معاصر للأحداث ، أخذ عن شيخه الأفغانى ، ودرس عنه ما درس ، ووعى ما وعى ، فكان الحجة القوية فى وصف عصره وأيامه .

كان جمال الدين جذوة ثورة لا تهدأ ، وقد وهبه الله قوة فى منطقه وبيانه ولسانه وكانت لغته فى اثارة النفوس على المظالم لغة جديدة ، تهز القلوب وتغزو الأفئدة ، مثل قوله يوجه القول الى المصريين من كلام طويل نكتفى منه بما يأتى :

« .. انظروا أهرام مصر ، وهياكل ممفيس ، وآثار طيبة ، ومشاهد سيوة ، وحصون دمياط ؛ فهى شاهدة بمنعة آبائكم ، وعزة أجدادكم ، هبوا من غفلتكم ، اصحوا من سكرتكم ، عيشوا كباقى الأمم أحرارا سعداء » .

يقول المؤرخ سليم عنحورى تعليقا على ذلك « ومنذ ذلك الحين طارت شرارة الثورة العرابية » .

* * *

كانت هذه هى لغته القوية الموجهة — فى كل بلد زار من بلاد الشرق ، فهو مثلا يخاطب الهنود فى بلادهم بقوله:

« يا أهل الهند ، وعزة الحق ، وسر العدل ، لو كنتم وأنتم تعدون بمئات الملايين — ذبابا مع حاميتكم البريطانيين ، ومن استخدمتهم من أبنائكم ، فحملتهم سلاحا لقتل استقلالكم واستنفاد ثروتكم — وهم بمجموعهم لا يتجاوزون عشرات الألوف — لو كنتم وأنتم مئات الملايين كما قلت — ذبابا . لكان طنينكم يصم آذان بريطانيا العظمى .. ولو كنتم أنتم مئات الملايين من الهنود ، وقد مسخكم الله فجعل كلا منكم سلحفاة ، وخضتم البحر ، وأحطتم بجزيرة بريطانيا العظمى ، لجررتموها الى القعر ، وعدتم الى بلادكم أحرارا » .

وقد وصف لنا جمال الدين فى دقة وحسن أداء — الأحزاب فى الشرق وصفا ينطبق فى تدرجه ومنطقه على ما وقع فى مصر خطوة فخطوة .

« نحسن نحن الشرقيين تأليف الأحزاب السياسية لطلب الحرية والاستقلال ، وكل العالم أصدقاؤنا ، ثم نضطر الى تركها والكل لنا أعداء ، والسبب العامل فى ذلك هو عدم التكافؤ فى القوى بين الأمة وأحزابها السياسية .

« يقوم الحزب السياسى على عنصر ضعيف أو على أفراد قلائل ، بينهم اللسن والمحنك ، ويعلنون تفانيهم فى خدمة الأمة لتحريرها من ربقة الاستعباد .. والأمة تتخيل من وراء وعود الأحزاب سعادة ورفاهية ، وحرية واستقلالا ومساواة .. فاذا ما تم للحزب ما طلبه من الأمة واستحكم له الأمر — ظهرت هناك فى رؤساء الأحزاب الأثرة والأنانية ، ومد حب الذات عنقه ، فتتقلص من القلوب تلك الطاعة ، وتنكمش النفوس عن ذلك الانقياد، وتحصل بالنتيجة النفرة العامة ، وتضطر حينئذ لترك الحزب وينفرط بالطبيعة عقده والكل له أعداء » .

* * *

أراد جمال الدين أن يجند جميع القوى الواقعة تحت حسه فى مصر لتحقيق أغراضه فى النهوض بالشعب وادراك أمانيه واستقلال ارادته .

ومن ذلك ثورته على الأحزاب الماسونية لمّا غرته أسماؤها . وتعاليمها وقوانينها التى لم يجد منها عند الاندماج فيهم شيئا . قال :

« أول ما شوقنى للعمل فى بناية الأحرار عنوان كبير

خطير : حرية — اخاء — مساواة — غرضها منفعة الانسان — سعى وراء دك صروح الظلم — تشييد معالم العدل المطلق .

« ولكن كنت أنتظر أن أسمع وأرى فى مصر كل غريبة وعجيبة ، وما كنت لأتخيل أن الجبن يمكنه أن يدخل من بين أسطوانتى المحافل الماسونية .

« اذا لم تتدخل الماسونية فى سياسة الكون ، وفيها كل بناء حر ، واذا كانت آلات البناء التى بيدها لا تستعمل لهدم القديم ، وتشييد معالم حرية صحيحة واخاء ومساواة ، واذا كانت لا تدك صروح المظالم والعتو والجور — فلا حملت يد الأحرار مطرقة ولا قامت لبنايتهم زاوية قائمة » .

من هذا الجهد المضنى كله الذى ملأ الأعوام الثمانية التى أقامها بمصر — طارت كما يقول العنحورى — شرارة الثورة العرابية

* * *

أما وقد جاء ذكر سليم العنحورى غير مرة ، فأرى أن أكتب عنه أيسر ما يكتب من القول

للتعريف به ، لأنه من أوسع من ترجموا لسيرة جمال الدين.

سليم عنحورى مؤرخ وأديب ، دمشقى المولد والنشأة ، جاء الى مصر وأصدر بها جريدة سماها « مرآة الشرق » سنة ١٨٧٩ ، وكان ممن يحضرون حلقات جمال الدين فى سهراته الليلية بقهوة « البوستة » . وقد ترجم لجمال الدين ترجمة وافية غير أنه نسب اليه فيها الالحاد فى العقيدة الدينية ، ولكنه لما تقابل مع الشيخ محمد عبده فى منفاه ببيروت صحح الشيخ له خطأه فاقتنع به ونشر فى الصحف يكذب نفسه من حيث عقيدة الأفغانى الدينية .

كان رئيس تحرير جريدته المذكورة — ابراهيم اللقانى ، وهو من أخص تلاميذ جمال الدين ، وكان يكتب وطنيات ثائرة على بيت محمد على مثل ارجاعه سبب فساد الأحوال فى مصر الى أمراء هذا البيت وجهلهم بواجباتهم نحو وطنهم ، وسوء تدبيرهم .. لا يعرفون شرعا ، ولا يرضون قانونا ، ولا يقبلون نصحا بل تعدوا الحدود وانتهكوا المحارم وثلموا الأعراض وحاربوا العدل فطغوا وبغوا ونهبوا وسلبوا .. وشادوا القصور ، وغرسوا

البساتين ؛ واقتنوا الحور والولدان ، وتألقوا فى المآكل وتفننوا فى المشارب ، وزينوا الملابس ، وسحبوا مطارف العجب والخيلاء — كل هذا وأفراد الرعية على مرأى منهم ، حفاة عراة يتضورون جوعا ويتلمظون ظمأ ويموتون من البرد .. » .

* * *

كان توفيق وهو ولى عهد يحب السيد الأفغانى ، ويقدره قدره ويخاطبه دائما بقوله « انك موضع أملى أيها السيد » ولكن صداقة الحكام لا تدوم . انهم يدورون حول كل من يديم لهم الحكم ويثبته ؛ ويلفظون كل ما من شأنه أن يقلق بالهم ويبلبل خواطرهم ؛ وهكذا لم يلبث توفيق أن نفى السيد جمال من مصر .

ولى توفيق الحكم فى ٧ من رجب عام ١٢٩٦ هجرية ، ونفى السيد جمال فى ٦ من رمضان من العام نفسه ، بعد أن جرى بينهما حديث علم منه توفيق أن جمال الدين لا يزال على خطته المثيرة ، وأنه خطر عليه فى حكمه .

وهذا هو الحديث كما يرويه الدكتور أحمد أمين فى ترجمة السيد الأفغانى :

« قال توفيق انى أحب كل خير للمصريين ، ويسرنى أن أرى بلادى وأبناءها فى أعلى درجات الرقى والفلاح ، ولكن مع الأسف أن أكثر الشعب جاهل لا يصلح أن يلقى عليه ما تقولونه من الدروس والأقوال المهيجة ، فيلقون بأنفسهم وبالبلاد فى تهلكة .

فأجاب جمال الدين على هذا بقوله — « ليسمح لى صاحب السمو أن أقول بحرية واخلاص ان الشعب المصرى كسائر الشعوب ، لا يخلو من وجود الخامل والجاهل بين أفراده ، ولكنه غير محروم من وجود العالم والعاقل ، فبالنظر الذى تنظرون به الى الشعب المصرى ينظر اليكم ، وان قبلتم نصح هذا المخلص وأسرعتم فى اشراك الأمة فى حكم البلاد عن طريق الشورى فتأمرون باجراء انتخابات نواب عن الأمة ، تسن القوانين وتنفذها باسمكم وارادتكم يكون ذلك أثبت لعرشكم وأدوم لسلطانكم » .

هذه النصيحة وما تجمع قبلها من تاريخ جمال الدين الثائر الأكبر فى وقته — كانت السبب فى نفيه من مصر الى أبده ، ونهاية حياته لأنه لم يرها بعد ذلك .

* * *

ترك جمال الدين فى مصر طبقة ممتازة ، أمثال محمد عبده ، وسعد زغلول ، وابراهيم اللقانى ، وأديب اسحاق ، وعبد الله النديم ، وابراهيم الهلباوى وغيرهم ؛ اهتدوا بهديه ، واستفادوا من علمه ، فساروا على نهجه ، على تفاوت بينهم فى درجة الاستفادة ، وفى الاقتداء به فى أداء رسالته .

أختتم حديثى عن هذا الحر الكريم بكلمتين يلخصان رسالته فى ايجاز ، الأولى له هو ، والثانية للشيخ محمد عبده .

أما كلمته فهى « لقد جمعت ما تفرق من الفكر ، ولمت شعث القصور ، ونظرت الى الشرق وأهله ، فاستوقفنى الأفغانى وهى أول أرض مس جسمى ترابها ، ثم الهند وفيها تثقف عقلى ، فايران بحكم الجوار والروابط ، فجزيرة العرب من حجاز هو مهبط الوحى ؛ ومن يمن وتبابعتها ؛ ونجد والعراق وبغدادها وهارونها ومأمونها ، والشام ودهاة الأمويين فيها ، والأندلس وحمراؤها ، وهكذا كل صقع ودولة من دول الاسلام وما آل اليه أمرهم ، فالشرق الشرق ؛ فخصصت جهاز

دماغى لتشخيص دائه وتحرى دوائه ، فوجدت أقتــل أدوائه داء انقسام أهله ، وتشتت آرائهم ، واختلافهم على الاتحاد ، واتحادهم على الاختــلاف ، فعملت على توحيد كلمتهم وتنبيههم للخطر الغربى المحدق بهم » .

أما كلمة الشيخ الامام فهى — « أما مقصده السياسى الذى قد وجه اليه كل أفكاره ، وأخذ على نفسه السعى اليه مدة حياته — وكل ما أصابه من البــلاء أصابه فى سبيله — فهو انهاض دولة اسلامية من ضعفها ، وتنبيهها للقيام على شئونها ، حتى تلحق الأمة بالأمــم العزيزة ، والدولة بالدول القوية ، فيعود للاسلام شأنه ، وللدين الحنيف مجده ، ويدخل فى هذا تقليص ظل بريطانيا فى الأقطار الشرقية » .

عبد الله نديم

١٢٦١ ـ ١٣١٣ هـ
١٨٤٥ ـ ١٨٦٩ م

أبوه نجار ثم خباز ، متواضع العيش رقيق الحال أرسل ابنه عبد الله الى الكتاب ليتعلم القراءة الضرورية والكتابة ، ليضمه اليه فى عمله بالمخبز بدل عامل يدفع له أجرا ، ولكن ابنه تفوق على أقرانه فى الكتاب وظهرت عليه ملامح الذكاء ، وقد أبدى لوالده رغبه فى أن يستمر فى الكتاب فلم يمانع أبوه فى ذلك ثم أدخله مسجد الشيخ ابراهيم باشا بمدينة الاسكندرية لانه لايستطيع ان ينفق على ابنه فى الازهر بالقاهرة فدرس عبد الله ما درس فى هذا المسجد ، ولكنه كان لا يواظب على الدرس ولا يبدى به اهتماما ؛ لأنه شغف بهواية جديدة عليه استقامت مع طبعه وفطرته هى هواية الأدب ، يخالط أهله ويغشى مجالسهم فى الأندية والقهاوى

فيسمع شعر الشعراء ، وزجل الزجالين ونوادر الماجنين وقصائد زناته والهلالين على الربابة فى القهاوى البلدية . وقد علمته هذه النشأه الشعبيه الاحاطه بلغة الشعب وأدبه ، وعاداته وتقاليده ، مما كان له الاثرالبالغ فى حياته الصحفيه فيما بعد .

لما انقطع عن المعهد الدينى وهوى ما هوى من أنواع الأدب امتنع والده عن الانفاق عليه ، فتعلم فن الاشارات التلغرافيه واكل به العيش فى مدينة بنها ، ولم تطل به الاقامه فيها فقد نقل الى القاهرة بمكتب القصر العالى وهنا رأى كيف يعيش الاغنياء والامراء فى النعيم وسعة الرزق ، وكيف تضيع الأموال فى الشهوات والتقاليد المرذوله . وقد أضاف بمعرفته الجديده هذه التعرف بعيشة الأغنياء كما تعرف من قبل فى الاسكندرية بعيشة الفقراء . وقد اجتمع له بذلك تعرف أحوال الشعب وأمرائه وعظمائه من كل وجه .

لم يلبث بعد أن نقل الى القاهرة أن عاد اليه شوقه القديم لمجالسه الأدباء وقد وجد بها من ذلك ماتمم به

أدبه ، وأفاض عليه منه بالنصيب الأوفى الذى أكمل به فى القاهرة مابدأ به فى الاسكندرية .

اتصل بمجلس محمود سامى البارودى شاعر مصر الاكبر فى وقته ، فرأى فيه الشعر يروى من قديمه وحديثه ؛ والسمر والفكاهة والتاريخ والمطارحات الشعرية التى تجود بها البديهه ارتجالا . وقداتصل فى هذه الندوه بعبد الله فكرى وعلى أبو النصر وصفوت الساعاتى والشيخ الزرقانى وغيرهم من رواد مجلس البارودى .

كانت هذه المدرسة الأدبية وما سبقها من مدرسة صغيرة فى الاسكندرية هى التى هيأت عبد الله نديم لما يسر له فى حياته كلها مما سنعرف .

* * *

لم يحجب الفقر ورقة الحال واضطراب الحياة — مواهب عبد الله نديم أن تظهر فى وقتها بعد أن اطمأن الى عيش متواضع تارة من الوظيفة التى فصل منها ، وتارة من الجمعيات الخيرية التى أسسها فى الاسكندرية ، وطورا من الصحف التى كتب فيها بواكير مقالاته مثل جريدتى « مصر والتجارة » لأديب اسحاق ، وسليم نقاش

بالاسكندرية ، وفيهما لمع اسمه بعض الشيء وعرف القراء على قلتهم يومئذ — أن كاتبا جديدا فكه الحديث خفيف الروح لمع فى أفق الصحافة اسمه عبد الله النديم .

لقيت مهنة الصحافة فى نفس نديم ترحيبا بها وتعويلا فى مستقبله عليها فماذا صنع .

أخرج فى ٦ من يونية عام ١٨٨١ جريدة سماها « التنكيت والتبكيت » وهى جريدة هزلية كما يبدو من اسمها ، ولكن هل كان هزلها من النوع السخيف الذى رأيناه فى مثل لغة جريدة السيف والمسامير ومن قبلها جريدة « الحمارة » ؟ لا . ان نديما فى هذه الجريدة الهزلية كان مصلحا اجتماعيا بأوسع معانى التعبير ، ثائرا على العادات المرذولة فى أيامه مما دلنا على أن الثورة أصيلة فى نفسه للاصلاح الاجتماعى قبل أن تكون للثورة العرابية .

دعا الكتاب أن يوافوه بمقالاتهم وقد قيدهم بالمنهاج الذى رسمه لجريدته . فقال .

« كونوا معى فى المشرب الذى التزمته ، والمذهب الذى انتحلته ، أفكار تخيلية ، وفوائد تاريخية ، وأمثال

أدبية ؛ وتبكيت ينادى بقبح الجهالة وذم الخرافات لنتعاون بهذه الخدمة على محو ما صرنا به مثلة فى الوجود من ركوب متن الغواية وأتباع الهوى اللذين أضلانا سواء السبيل » .

أخذ نديم يعالج عيوبنا الاجتماعية فى ثورة قصصية بارعة ، وقد عرف ميل القراء الى الأسلوب القصصى وتفضيله على كل الأساليب فعنى به كل عنايته فى جريدته . ونضرب لذلك أمثلة وجيزة مما كتبه باسلوبه القصصى الطريف .

كتب قصة ترمى الى نقد ما كان يجرى فى أيامه بين العامة من اجتماعهم فى القهوات مستمعين الى القصاص « شعراء القهاوى » وانقسامهم الى معسكرين ، منهم المتعصب لعنترة بن شداد ومنهم المتعصب لزغبة ؛ وما كان من أحدهم — وقد ختم القصاص ليلته بوقوع عنتره فى الأسر — اذ ذهب الى بيته غاضبا فأيقظ ابنه من نومه وأمره أن يقرأ له فى كتب القصص حتى يخلص عنترة من الأسر والا مات حزنا على أسر عنتره ، فلما لم يطعه ابنه ظل يضربه بعصاه حتى أدماه .

وقصة أخرى . هى قصة الفلاح والمرابى اليهودى ، وخلاصتها أن فلاحا جاهـلا أراد أن يقترض من المرابى مائة جنيه ، فأعطاه سبعين وكتب عليه « كمبيالة » بمائة وعشرين ، وحسبها للفلاح على هـذه الصورة . المائة فائدتها عشرون تخصم من المائة فيكون البـاقى عشرين وتضم الفائدة عليه فيكون عليه مائة وعشرون . ثم يقدم الفلاح للمرابى قطنا وقمحـا ثمنهما ١٢٥ جنيها يحسبها المرابى بأربعين . كل ذلك والفلاح تغمره الغفلة والجهل ولا يدرى ماذا يصنع به هذا المرابى فى فوائد الربا .

وقصة ثالثة هى قصة ثرى بنى بيتا وأسسه أساسا فاخرا ، وكان من أثاثه مكتبة كبيرة رآها زواره فيما بعد فسألوه عما تحتوى المكتبة من الكتب ليعرفوا اتجاهه فى اختيار كتب مكتبته فكان فحوى جوابه عن استفهامهم . أى اطلاع وأية قراءة ؟ انها زينـة فى بيتى ، وقد كنت أزور الكثيرين قبل أن أؤسس بيتى الفخم — فأجد فى بيوتهم مثل هذه المكتبة فقلدتهم فى اقتنـائها ، وليس تأسيسها لأننى أقرأ أو أطلع . اننى أنظر اليها والخادم ينفضها كل يوم بمنفضة من الريش فأسر لذلك كل السرور

ولم أفتحها منذ اقتنيتها ، وأنا متأكد أن الذين قلدتهم فى شرائها هم أيضا يقتنونها للزخرفة . اننى لا معرفة لى بفن أو علم عما تسألوننى .

ويختم نديم هذه القصة بقوله :

« وهكذا أصبح الكل نائما فى غفلة التقليد » .

هكذا كان نديم قبل الثورة العرابيـة ثائرا مصلحا اجتماعيا .

* * *

بدأت الثورة العرابية تظهر للعيان ، ولا أؤرخ لها وانما أذكر أغراضها بايجاز :

عدل بين الضباط الوطنيين — عزل للضباط الغرباء الدخلاء — تغيير صورة الحكومة من نظام استبدادى الى نظام شورى — ثورة على شـخص الخـديوى توفيق والمناداة بعزله لالتجائه الى الدول الأجنبية لحماية عرشه دعوة الى الجهاد العام لصد المغيرين .

اتسعت دائرة الثـورة رويدا ، فشملت الأعيـان والعلماء والتجار وأكثر أفراد الشعب ، وبالجملة دخلت كل ضمير حى يقظ فى هذا الجو الذى صورته باشارات

لا بعبارات ، عمل عبد الله نديم واحتضنه العرابيون بما رأوه فيه من مميزات لم يجدوها فى غيره ، فكان كاتب الثورة العرابية وخطيبها .

استعمل نديم كل الأساليب — حتى الخيالى والمخترع — فى اثارة الخواطر ومخاطبة القلوب ليجعل الشعب كله صفا واحدا يدافع مع رجال الثورة .

وهنا لطيفة لابد من ذكرها ، تدلنا على ما كان يستعمله نديم من أساليب خيالية يجذب بها قلوب القوم الى الثورة .

هذه اللطيفة هى ما حدثنا به الأستاذ فتحى زغلول فى أول رؤيته لنديم وسماعه خطبه « وقد رواها لنا السيد رشيد رضا فى تاريخ الأستاذ الامام » — قال فتحى :

« كنت فى عهد الثورة تلميذا فى مدرسة رأس التين بالاسكندرية فبلغنا أن السيد عبد الله نديم سيخطب فى الجمهور فى مكان كذا فحضرت خطبته مع كثيرين من الطلبة وغيرهم فكان مما قاله ما خلاصته :

« ان طوابى الاسكندرية اذا أطلقت مدافعها على البحر يبلغ مداها جزيرة قبرص من هذا الجانب ، ومدافع

الأستانة اذا أطلقت تبلغ هذه الجزيرة من الجانب الآخر ، فكيفما جالت الأساطيل الانجليزية فهى تحت رحمة مدافعنا » .

ويعقب فتحى زغلول على ذلك بقوله :

« فعلا هتاف الناس وتصفيقهم له » .

ان الذى يسمع هذه العبارة أو يقرأها ولا يعرف قصد نديم منها — يحكم من فوره عليه بالجهل المطبق ، ولكن نديما لم يكن جاهلا وانما كان ذا خيال خصب فى دفع الناس بلسانه وقلمه الى الانضمام الى الثورة . وهذه كانت رسالته فى الثورة العرابية أداها بكل طرق الأداء من خيال الى مبالغات الى تصوير للحقائق فى شعره ونثره وخطبه .

* * *

وماذا كانت أدواته المثيرة فى هذه الثورة ؟ كان له أداتان خاض بهما بحرها ، قلمه ولسانه .

أما قلمه فلقد كان يحرر به جريدة الثورة التى اتخذها لخدمتها وغير اسمها من التنكيت والتبكيت الى « الطائف » ، وقد نقل ادارتها من الاسكندرية الى القاهرة . وكان فى

تحريرها قويا كل القوة ينقد تصرفات اسماعيل فى ثبات وجرأة ، ويبين بؤس الفلاحين فى السخرة والتعذيب ، وكيف يخر الناس قتلى بؤس وجوع واعياء من فداحة الضرائب المفروضة عليهم ، وكانت هناك قاعدة مقررة فى حكم اسماعيل هى أنه لا ينال رضاه من الرؤساء الا من غالى منهم فى تعذيب الفلاحين وأخذ منهم الضرائب كاملة.

عُرف نديم كل المعرفة وظهرت قوة بيانه واحترام جـريدته وانتشـارها ، فأراد رئيس مجلس النـواب « سلطان باشا » أن تكون جريدة الطائف لسان حال المجلس ، وقد كتب بذلك الى نظارة الداخلية ، ومن هذا الوقت أصبحت الطائف تعبر عن آراء النواب الأحرار فى ضرورة اصلاح الحكم بالطريق النيـابى السليم الذى يكون فيه الوزراء مسئولون أمام نواب الأمة .

قد يبدو غريبا أن يقـع كل ذلك من نديم فى حكم اسماعيل الطـاغى ، ولكن الغـرابة تزول اذا عرفنا أن اسماعيل كان قد ضعف فى نهاية عهـده ، ولم يصبح له ذلك السلطان الجائر الذى يهدد به البلاد والعباد ، ويقضى به على كل معارضة أو نقد .

جاءت الثورة العرابية فى ابتداء حكم توفيق ، وكانت جريدة الطائف لسان الدعاية لها ، تلقب أحمـد عرابى بحامى حمى الديار المصرية ، وتنتقد الخـديوى توفيق ألذع النقد لارتمائه فى أحضان الأجانب لينقذوه وينقذوا عرشه المضطرب .

وبحسب هذه الجريدة فى أداء رسالتها الثورية أن يصفها الكاتب اللبق أديب اسحاق بقوله :

« موصوفة بالوطنية ، معروفة بصدق النية ، منتشرة نافذة الكلام ، خطيرة مرعية المقام » ..

انتقل نديم بجريدته الى ميدان القتال ، يلازم الجيش فى الحرب والضرب ويصدر جريدته هناك ، فكان هو الجندى الصحفى المحارب مع الجيش بقلمه وجريدته .

وأرى أن أثبت هنا بعض ما كان يكتبه وهو على هذه الحال ، يحمس الجيش ، ويزيد فى قوته المعنوية .

قال شعرا على لسان الحرب الدائرة تنادى جنودها فى الميدان .

بنى العرب هيا لا يعيش جبـان

فروحى وجسـمى همـة وجنان

أنا النـــار تذكو غـــير أن لهيبها
به العرض فى وسط الوجود مصان
أنا الشؤم لكن فى ظـــلام وجنتى
سعود عليها للســـعود ضـــمان

وقال نثرا يصف به موقعة حربيـــة ، ويوزعها على الجنود فى الميدان .

... « فما أتمت أفواه المدافع قولها حتى ملأت رجالنا حماسة وعزما ، وأرسلت الرصاص الحار على الأمة الباردة وجاوبتها مشاة العدو ببنادقها ، وتصورت ساحة القتال بشكل مريع ، وكنت كلما مررت على أورطة أحمســـها وأشجعها : لا أسمع منها الا صوت بنادقها ، ولا أرى الا سرعة حركتها ، وكلما وصلت مدفعا أرى أيدى رجاله كآلة مكينة بخارية لا حد لسرعتها ، وكلما تحول العدو لنقطة تحولت عليه الرجال والمدافع ، ومع أنه كان فى متاريس حصينة فان المدافع والقنابل أخرجته منها رغبة منه فى الفرار ، فقطعت عليهم المدافع خط الوصول الى المعسكر ، وحالت البنادق بينه وبين المتاريس ، فلم يجد بدا من الثبات فثبت ولكن بقدر ما عدم نصف رجاله ،

ووقف انتظارا للمنون .. ثم دخـــل الليل وقد غضبت عساكرنا وزمجرت زمجرة الأسود .. فلا تسل عن هيئة الجو وصورة الميدان ، ولا تسل عن عساكرنا كأنهم العمد ثباتا والغزلان حركة .. وأعجب لوقوف الانجليز وقوف الحيرة والتنقل أمام هؤلاء الأسود .. » .

هذه كانت لغة نديم فى شعره ونثره فى الميـــدان ، يحمس الجند ، ويصف لهم المعارك بالأســـلوب الذى يعرفون منه أنهم منتصرون ، ولو لم يكونوا منتصرين .

* * *

فماذا كان أسلوب نديم قبل ذلك يوم كان يُعـــد النفوس للثورة . اليك بعض الأمثلة :

قال على لسان الوطن ينادى الجيش الذى جُهـــز للثـــورة :

اليكـــم يرد الأمـــر وهو عظيم
فانى بكم طـــول الزمان رحيـــم
اذا لم تكونوا للخطوب وللردى
فمن أين يأتى للـــديار نعيـــــم

وان الفتى اذ لم ينـازله زمانه
تأخـــر عنـه صـاحب وحميم
فردوا عنـان الخيل نحو مخيم
تقلبـه بين البيـوت نسـيم
وشدوا له الأطراف من كل وجهة
فمشدود أطراف الجهات قـويم
اذا لم تكن سيفا فكن أرض وطأة
فليس لمغـلول اليـدين حـريم

ومن قوله يودع فرقة عسكرية متنقلة : —

« حماية البلاد وفرسانها » .

« من قرأ التواريخ وعلم ما توالى عـلى مصر من الحوادث والنوازل ، عرف ما وصلتم اليه من الشرف ، وما كتب لكم فى صفحات التاريخ من الحسنات . فقد ارتقيتم ذروة ما سبقكم اليها سابق، ولا يلحقكم فى ادراكها لاحق ، ألا وهى حماية البلاد ، وحفظ العباد ، وكف يد الاستبداد عنها ، فلكم الذكر الجميل والمجـد المخلد ، يباهى بكم الحاضر من أهلنا ، ويفاخر بأثركم الآتى من أبنائنا .. ولقد ذكرتم باتحادكم ، وحسن تعاهـدكم ،

ما كان من رسول الله صلى الله عليه وسلم عنـد تغيب سيدنا عثمان فى أهل مكة ، من مبايعة أهل الشجرة على استخلاص صاحبهم ، فصـاروا يَعْنَوْنَ بالعشرة المبشرين بالجنة ، وأنتم قد تعاهدتم على حفظ الأوطان .. وتبايعتم عـلى الدفاع ووقاية أهلكم من كل ما يذهب بالثروة ، أو يضعف القوة ، أو يخدش الشرف ، فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم .

« هذا أخوكم الحر يودعكم : فاجعلوا عروة الود وثيقة ، ولا تحلوا حبل الاتحاد الذى جاهدتم ..

ثم ختم كلمته بقوله : —

وبحسبكم عند النوازل أن يقال مات شهيد الأوطان فنادى الجميع .

« رضينا بالموت فى حفظ الأوطان » .

* * *

معروف أن الجامع الأزهر له تاريخ فى الثورات كلها ، له تاريخ فى الثورة على الفرنسـيين ، وفى الثـورة على الانجليز ، تلقى فيه الخطب المثيرة ، وكان خطباء هاتين الثورتين من أبنائه الأزهريين . أما فى الثورة العربية فكان

خطيب الثـوار فيه هو عبـد الله نديم ، والأزهـريون — غالبا — مستمعون ، يحيطون به ، ويلتفون حـوله ويعظمونه تعظيما بالغا ، تسعدهم الأوقات التى يقضيها بينهم خطيبا فى الأزهر ، وقد وقع أن قناصل الدول الأوربية قدموا عريضـة الى الخديوى يطلبـون فيها نفى كبار الضباط ليستريح الخديوى من مطالبهم ، ولتهدأ الحالة العامة التى تنذر بثورة يتزعمها أحمد عرابى ، وقد ذهب نديم الى الأزهر ليخطب الناس فى هذه المسألة فوجدهم كتلا بشرية ينتظرونه على الباب الذى كان يدخل منـه عادة ، وقد خطب وأطـال الخطاب ، وثار الأزهـريون وغيرهم ممن كانوا يملأون المسجد ، وكان يوما مشهودا من أيام نديم .

* * *

قضى على أمال نديم فى الثورة ، وقضى على الثورة بما قضى الله عليها به ، فهرب نديم من القاهرة ، فكيف كانت حياته الأدبية فى مهاربه .

انه يعشق الكتابة ، ويهوى حرفة القلم ، فيصف لنا

أحواله فى خطاب أرسله الى صديق له « نقلا عن سلافة النديم » :

« ان سألت عنى فأنا بخير وعافية ، وحالة رائقة صافية ، أشغل فكرى بما يأتى به الليل اذا كنت بالنهار ، ولا أتعب ذهنى بتوالى الهموم والأكدار ، ولا أتألم من طول المدة ، ووقع الشدة لاعتقادى أن لكل شدة مدة ، متى انتهت جفت الأوحال ، وحسنت الحال ، فترانى فكرى كليمى ، وقلمى نديمى ، تارة أشتغل بكتابة فصول فى علم الأصول ، وأجمع عقائد أهل السنة ، بما تعظم بها لله المنة ، وحينا اشتغل بنظم فرائد ، فى صورة قصائد ؛ ووقتا أكتب رسائل مؤتلفة ؛ فى فنون مختلفة ؛ وآونة أكتب فى التصوف والسلوك ، وسير الأخبار والملوك ، وزمنا أكتب فى العادات والأخلاق وجغرافية الآفاق ، ومرة أطوف الأكوان على سفينة تاريخ الزمان ؛ ويوما أشتغل بشرح أنواع البديع فى مدح الشفيع .. وقد تم لى الآن عشرون مؤلفا بين صغير وكبير ، فانظر الى آثار رحمة الله اللطيف الخبير ، كيف جعل أيام المحنة وسيلة للمنحة والمنــــة .. » .

من فحوى ذلك الخطاب نعــرف أن نديما لم يكن ساذجا فى علومه ومعارفه ، وانما كان دارسا محصلا واعيا

قرأت فى هذا الخطاب قوله .. « وحينا اشتغل بنظم فرائد فى صورة قصائد » فماذا كان اتجـاهه فى أدب قصائده وهو فى مهاربه ؟ .

لم يئنس نديم الهرب والاختفاء ، والبؤس الذى شرب كؤوسه مترعة — قوة ايمانه ومتانة أخلاقه ، واقتداره على الاستمرار فى لغة الثورة ، ثورة النفس على ما حاق بها من ظلم ، وما لقيه من أهوال .

لو أن غير نديم فى هذا الوضع لاستعمل أسلوبا غير هذا الأسلوب . أسلوب شكوى الحال والزمان بلغــة تنفث ضعفا وألما وشكوى . ولكن النديم لم يستعمل هذا الأسلوب فيما قرض من شعر فى بأسائه ومهاربه ، وانما كان قويا كل القوة فيما صدر عنه من أدب . قال :

أتحســبنا اذا قلنــــا بلينــــا
بلينــــا أو يزوم القلب لينــــا
نعم للمجــد نقتــحم الدواهى
فيحسب خــــامل أنّا دهينــا

تناوشـــنا فتقهـرنا خطـوب
ترى ليث العـرين لهـا قرينـا

الى أن قال :

اذا ما الدهـر صـافانا مرضـنا
فان عـــدنا الى خطب شـفينا
لنـا جلـــد على جلـد يقينا
فان زاد البـــلا زدنا يقينـــا

الى أن قال :

سلينا يا خطوب فقــــد عرفنـا
بأنا الصلب — صلنا أو صلينا
وقرى فـوق عاتقنــــا وقـولى
نزلت اليـوم أعلى طورســـينا
علينـا للعـــلا دين وضـــعنا
عليـه الروح لا الدنيـا رهينـا

الى أن يقول :

ســـلوا عنـــا منـــابرنا فانا
تركنا فى منصـــتها فطينــــا

لحكمتنا تقــول اذا هـــــذرتم
«ألا هبى بصحنك فاصبحينا»

* * *

عثر على نديم وجىء به الى القــاهرة عام ١٨٩١ ، وقررت الحكومة نفيه خارج القطر ، فنفى الى يافا وقضى بها زمنا .

وفى عهد الخديوى عباس سمح له بالعودة فعاد ، كما سمح له بأن يواصل عمله فى مهنته التى أحبها — مهنة الصحافة — فأصدر جريدة جديدة سماها « الأستاذ » صدر العدد الأول منها فى صفر عام ١٣١٠ هـ « أغسطس سنة ١٨٩٢ م » .

كان هدف هذه الجريدة الجديدة فى ابتداء ظهورها ، الاصلاح الاجتماعى ، والثورة على المفاسد والعــادات المؤذية ، كما كانت الحال فى جريدة «التنكيت والتبكيت» بل زادت عليها ، لأن الحياة فى مصر كانت قد تغيرت بعد الاحتلال الانجليزى من سيىء الى أســوأ فى الأخــلاق والعادات ، كالادمان على معاقرة الخمور دون التفات الى نقد الناقدين ، حتى أن الحانات وجدت لها أمكنة فى بلاد

الريف ، وهو منكر لم يكن معهودا من قبـل ، وكحرية النساء فى الزى والتبرج ، وكتقليـد المصرى للأوربى تقليدا لا بصيرة فيه ولا بصر ، الى غير ذلك من المفاسد التى طرأت على مصر بعد رسوخ قدم الاحتلال فيها .

عالج نديم — كعادته — كل هذه الموبقات بشـدة وعنف لكيلا يضيع الشرق خلقيا كما ضاع سياسـيا ، فيموت موتته الأخيرة التى لا قيـامة له بعـدها ، وقد انتشرت جريدته انتشارا لم يكن لغـيرها من الصحف يومئذ ، مما دلنا على أنه كان مصلحا مقبـول القول ، طريف العبارة ، خفيف القلم ، يكتب أكثر ما يكتب — للعامة لا للخاصة ، ويلون التحرير فى جريدته تارة باللغة الفصحى ، وتارة بالأسلوب العامى حسب المقتضيات التى يراها ، لأنه يدخل فى حسابه كل الطبقات .

* * *

كان هذا الاتجاه الطيب هو رسالة نديم فى جريدته . ولكنه سرعان ما انغمس فى السياسة الأمر الذى كان سببا فى ابعاده عن البلاد .

وسبب انغماسه هذا هو عنف الشقاق بين الخديوى عباس وبين لورد كرومر سـنة ١٨٩٣ ، وقد انقسـمت الصحف الى معسكرين ، صحف مع عباس مثل جريدة الأستاذ ، ومثل المؤيد والأهرام ، وصحف مع كرومر مثل المقطم فى مصر ، والصحف الأجنبية فيها وفى انجلترا ، وقد اتهمت هذه الصحف الكرومرية نديما بأنه مهيج ثائر ، وخطر على الأجانب بل وعلى انجلترا فى الهند ، لأنه كثيرا ما كان يحمل على سياستها فيها حملات شعواء ، يسوقه اليها حملاته على سياستها فى مصر .

واتهى الأمر باخراج نديم من مصر الى أى بلـد يختاره ، فاختار له الغازى مختار باشا أن يذهب الى تركيا للاستفادة من مواهبه ، فذهب اليها وعين فى وظيفة يعيش من مرتبها الى أن انتهت فيها حياته .

* * *

كتب فى آخر عدد صدر من جريدته (الأستاذ) — لما تقرر نفيه — وداعا لبلاده وقومه . (١٣ يونيو ١٨٩٣) .

« ما خلقت الرجال الا لمصابرة الأهوال — ومصادمة

النوائب — والعاقل يتلذذ بما يراه فى فصول تاريخه من العظمة والجلال ، واذا كان المبدأ صعوبة وكدرا فى أعين الواقفين عند الظواهر — وعلى هذا فانى أودع اخوانى قائلا :

أودعكم والله يعـــــلم أننى
أحب لقاكم والخـلود اليكمُ
وما عن قلى كان الرحيل وانما
دواع تبدت .. فالسلام عليكمُ »

* * *

وكما لخص جمال الدين الأفغانى حياته فى عبارات ذكرتها آنفا — كذلك لخص عبد الله نديم حياته فى قوله :

« أخذت عن العلماء ، وجالست الأدباء ، وخالطت الأمراء ، وداخلت الحكام ، وعاشرت أعيان البـلاد ، وامتزجت برجال الصناعة والفلاحة والمهن الصـغيرة ، وأدركت ما هم فيه من جهالة ، ومم يتـألمون ، وماذا يرجون ، وخالطت كثيرا من متفرنجة الشرقيين — وألممت بما انطبع فى صدورهم من أشعة الغربيين — وصاحبت

جما من أفاضل الشرقيين المتعلمين فى الغرب — وعرفت كثيرا من الغربيين — ورأيت أفكارهم عالية أو سافلة فيما يختص بالشرقيين — والغـاية المقصودة لهـم — واختلطت بأكابر التجار — وسبرت ما هم عليه من اليسر فى المعاملة أو السياسة — ، وامتزجت بلفيف من الأجناس المتباينة جنسا ووطنا ودينا ، واشتغلت بقراءة كتب الأديان على اختلافها ، والحكمة والتـاريخ والأدب ، وتعلقت بمطالعة الجرائد مدة ، واستخدمت فى الحكومة المصرية زمنا ، واتجرت برهة ، وفلحت حينا ، وخدمت الأفكار بالتدريس وقتا ، وبالخطابة والجرائد آونة — واتخذت هذه المتاعب وسيلة لهذا المقصد الذى انتهيت اليه بعناء كسانى نحول الشـيخوخة فى زمن بضاضة الصبا — وتوجنى بتاج الهرم الأبيض — بدل صـبغة الشـباب السوداء — فصورتى تريك هيئة أبنـاء السـبعين — وحقيقتى لم تشهد من الأعوام الا تسعة وثلاثين .

* * *

واضح من ذلك أنهذا التكوين العلمى كله — وهذه

المخالطات المتنوعة لجميع الطبقات — وهـذه التجارب المصقولة — وهذه الحياة الحافلة بالثورات والكتابات والخطابات والاختباءات — كانت لنديم وهو فى سن التاسعة والثلاثين — فهو بذلك من أندر رجال التاريخ فى عصرنا الحديث .

محمد عبده

١٢٦٦ ـ ١٣٢٣ هـ
١٨٤٩ ـ ١٩٠٥ م

أرى ضرورة لأن أقدم للشيخ بمقدمة يعرف منها ابتداء نشأته كما قدمت لسابقيه — لأن مجمل تاريخه صار من المعارف الضرورية — ومع هذا لا أرى بأسا من أن أقتبس فى نشأته بعض ما تحدث به هو عن نفسه فى مذكراته .

« تعلمت القـراءة والكتابة فى منزل والدى — ثم انتقلت الى دار حافظ القرآن — وبعد ذلك حملنى والدى الى طنطا لأجـود القـرآن الذى حفظتـه فى الكتاب (١٢٧٩ هجرية) .. وفى سنة ٨١ جلست فى درس العلم فى المسجد الأحمدى .. وفى منتصف شوال من عام ١٢٨٢ ذهبت الى الأزهر — وداومت على طلب العلم .. الى أن

جاء المرحوم السيد جمال الدين الأفغـاني الى مصر — أواخر سنة ١٢٨٦ — وقد صاحبته ابتداء من شهر المحرم سنة ١٢٨٧ — وأخذت أتلقى عنه بعض العلوم الرياضية والحكمية (الفلسفية) .

هذا التلخيص هو ابتداء حياة الشيخ فى نشأته الأولى أخذا من مذكراته الطويلة التى أثبتها السيد رشيد رضا .

* * *

ما نسيت ولن أنسى — أن أول وصف دقيق لأدب الامام محمد عبده قد سمعته من أستاذى الكبير الشيخ أحمد الاسكندرى — وكنا بالسنة النهائية فى مدرسة أدبية عليا .

وصف الأديب الاسكندرى أسلوب الامام يقوله — « انه أسلوب ذو سطوة »

ومعروف أن السطوة هي الشدة — أى أن أسلوبه سواء فيه الكتابى والخطابى — ينبع من نفس قوية — والنفس القوية لا تلد ضعفا — كما أن النفس الضعيفة لا تلد قوة.

وكذلك ما حدثنا به أستاذنا الكبير أحمد لطفى السيد عام ١٩١١ — وقد ذهبنـا اليه بادارة الجـريدة كطلبة

يريدون نشر شيء خاص بهم — فتبسط معنا فى الحديث — وأخذ — لمناسبة جاءت — يذكر لنا بعض ذكرياته عن الامام — وكان من مستقبلى الامام يوم عودته من رحلته بالسودان سنة ١٩٠٥ — وكان الزحام شديدا فى هـذا الاستقبال — وقد تقدم الى الامام أحد الشيوخ يخبره بأن أحـد كبار المسيحيين قد أسـلم — وأنه يعلمـه العبادات وكيفية أدائها — وقد علمـه اليوم الوضـوء بالتفصيل — فاستفهم منه الامام عن هذا التفصيل فى تعليم الوضوء — فقال الشيخ مثل أن أحدد له غسل الوجه ما بين شحمتى الأذنين عرضا ومن منبت الشعر الى أسفل الذقن طولا — فعبس الامام واحتـد فى خطـابه للشيخ قائلا . ياسى الشيخ .. كل انسان يعرف وجهـه دون حاجة الى مساح .

كنت أذكر ذلك كلما جاءت مناسـبة لذكر الامام ، وكلما قرأت شيئا من أدبه ، مثل كلمة « اسمع » التى استعملها فى تقريراته الفلسفية فى علم الكلام ، فانه التزم فيها صيغة الأمر هذه فى كل مسألة يريد تقريرها وبيانها ، والتعبير بكلمة « اسمع » فى معرض البحث العلمى يدل

على القوة بلا ريب ، قوة النفس ، وقوة اقتناعه بصواب ما يقـــرر .

* * *

هذه بعض ذكرياتى فى صدر شبـــابى عن أسلوب الشيخ الامام . أما ماقرأته له بعد ذلك من أساليبه القوية فكثير ، أذكر منه الآن قوله فى الشعب والحكم والحاكم .

« وهناك أمر كنت من دعاته ، والناس جميعا فى عمى عنه ، ولكنه الركن الذى تقوم عليه حياتهم الاجتماعية ، وما أصابهم الوهن والضعف والذل الا بخلو مجتمعهم منه وذلك هو التمييز بين ما للحكومة من حـــق الطاعة على الشعب ، وما للشعب من حق العدالة على الحكومة » .

« نعم كنت فيمن دعا الأمة المصرية الى معرفة حقها على حاكمها ، وهى لم يخطر لها هذا الخاطر على البال من مدة تزيد عن العشرين قرنا .

« دعوناها الى الاعتقاد بأن الحاكم وان وجبت طاعته فهو من البشر الذين يخطئون وتغلبهم شهواتهم ، وأنه لا يرده عن خطئه ، ولا يوقف طغيان شهوته الا نصح الأمة له بالقول والفعل .

« جهرنا بهذا القول والاستبداد فى عنفوانه ، والظلم قابض على صولجانه ؛ ويد الظالم من حديد ؛ والناس عبيد له أى عبيد » .

فى هذا القول الوجيز ترى الثورة الوقورة فى نفس هذا العظيم الكريم ، ثورة على المظالم ثورة على استبداد الحاكم ؛ ثورة للشعب المحكوم بغير ارادته ؛ ثورة على حرمان الشعب من كل حقوقه على حاكمه .

وبالايجاز كان الشيخ الامام فى عهده هو الرجل الأول فى محاولة اصلاح كل فاسد ولذلك وصف بالاجماع بأنه المصلح الكبير .

عرف هذا أهل جيله ومخالطوه . فيقول السيد توفيق البكرى الأديب الكبير — « انه لو ترك الحكومة وعمل مستقلا لأحدث فى الأمة انقلابا كبيرا » .

ويقول قاسم أمين — انه ذو مقام مكنه من أن يمسك بيده زمام أمة بأسرها ، ويحركها نحو الغاية التى رسمها ، ويسوقها الى طريق المستقبل الذى هيأه لها » .

ويتابع الخديوى عباس الاستفهام عن الامام ، ليعرف رأى العلماء فيه ، فيسأل عنه — فيمن سأل — السيد

عبد الرحمن الكواكبى « فيجيبه بأن مصر أخرجت من لا يحصى من العلماء دون الفلاسفة الحكماء ، ثم أخرجت حكيما فاق جميع الحكماء ، هو الشيخ محمد عبده » .

صاحب هذه الشخصية الكبرى المصلحة هو الذى استخلفه باعث نهضة التحرير فى الشرق . السيد جمال الدين الأفغانى وهو على ظهر الباخرة التى ذهبت به الى منفاه — بقوله : « لقد تركت لكم الشيخ محمد عبده وكفى به لمصر عالما » .

ثم يكتب عنه محامى العرابيين « مستر برودلى » أمام المحكمة العسكرية فى كتابه الذى أصدره عن الثورة العرابية بعد انتهاء المحاكمات فيها .

« ربما كان الشيخ محمد عبده أعظم الناس موهبة بين الرجال الوطنيين المصريين ؛ وقد أثر فى الطبقة المهذبة من أهل وطنه تأثيرا ظاهرا ، لأنه كان كاتبا لطيفا ، وعالما بالعربية ضليعا ، وخطيبا فصيحا ينفذ الى القلوب ، ولا شك أنه ساعد كثيرا على جعل الرأى العام عاملا فى الترقى المصرى » .

* * *

أن الشيخ الامام ليس بحاجة الى تزكية من أحد ، فهو الذى يحكم على أقدار الرجال ، ولكننى سقت بعض الآراء فيه لأراه فى مرآة زمـانه ، من الذين خالطـوه وعرفوه حق معرفته ، وكأننى بذلك رجعت الى عهدهم ، فعرفت كيف كان هذا العظيم فى تقديرهم عن علم وبينة .

* * *

للشيخ أطوار فى صناعته القلمية ، وكل ما عرفناه من انتاجه فى هذه الأطوار — نشر غالبا فى الصحف فى كتب سيرته — ويبدو أنه أحب النشر فى الصحف بتأثير السيد جمال الدين الذى كان يكلف تلاميذه بكتابة المقالات ونشرها فى الصحف والمجلات .

هذه الأطوار ألخصها فى أربعة :

١ — ابتداءاته الأولى .

٢ — جريدة الوقائع المصرية .

٣ — جريدة العروة الوثقى .

٤ — ما كتب بعد عودته من منفاه .

* * *

ابتداءاته : —

بدأ الشيخ وهو طالب فى الأزهر يكتب فى جـريدة الأهرام ، وكان أول مقال له فيها هو تقريظها وتحيتها — فى سبتمبر سنة ١٨٧٦ م (١٤ شعبان سنة ١٢٩٣ هـ) وقد حياها لأنه ضيف عليها ، ويريد متابعة النشر فيها ، وقد فتحت له صدرها فعلا بعد هذه التحية فكتب فيها أربع مقالات بعناوين — الكتابة والقلم — المدبر الانسانى والمدبر العقلى الروحانى — العلوم الكلامية والدعوة الى العلوم العصرية — التحفة الأدبية .

فى هذه المقالات كان أسلوب الشيخ متأثرا الى حد بعيد بالسجع ، وعمق البحث مما أخرجها من الأسلوب الأدبى الى الأسلوب العلمى الفلسفى .

هذه البداءة لا يعنينى الكلام فيها الا بمقدار أن أقول انها كانت بداءة طيبة من أزهرى ، ليس فى أزهره ما يعلمه سبل الكتابة والبيـان ، وانما هـذا فيض من أستاذه الأفغانى .

يلحق بهذ البـداءة ما كتبـه تلخيصا لمحـاضرتين لجمال الدين فى فلسفة التربية ، وفلسـفة الصناعة —

نشرهما فى جريدة «مصر» سنة ١٢٩٦ هـ — سنة ١٨٧٩م وهما خاليتان من الأسجاع خلوا تاما ، وسبب ذلك واضح هو أنه يعبر عما سمعه ، ويلخص ما وعاه ، وليس فى معانيه شىء له يصح أن يصوغ من أسلوب التعبير عنه سجعا أو تكلفا .

* * *

فى الجريدة الرسمية :

تحرير الشيخ للجريدة الرسمية ، واختياره لهـذا العمل الكبير له قصة . هى أن رياض باشا كبير الوزراء فى ذلك العهد أراد أن ينقل الجريدة من الجمود الذى يلازمها — الى جريدة نافعة . فلقد كانت مقصورة على نشر أخبار الدواوين والمصالح ، ولكنه أراد لها أن تكون غير ذلك ، فاستشار الأديبين الكبيرين الشيخ حسين المرصفى مدرس الأدب بدار العلوم ، والشاعر الفحل محمود سامى البارودى ، فوجدهما على رأى واحد ، هو اختيار الشيخ محمد عبده لهذا العمل الاصلاحى الصحفى ، وكانت استشارة الوزير لكل منهما على حدة .

يقول الشيخ محمد عبده فى موجز كلماته «خير أعوانك

الحاجة اليك » ولقد كان الشيخ مقيما فى قريته فى هذه الآونة التى استشار فيها رئيس النظار الأديبين الكبيرين — لا يبرحها الا بأمر الحكومة ، ولكن رياض باشا لما رأى هذا الاجماع على اختيار الشيخ — أخذ يزيل ما فى نفس الخديوى مما كانت تحمله للشيخ ، وقد استقدم من بلده على هذا الأساس ، وتولى تحرير الوقائع .

الى أن وصل الشيخ الى هذه المرحلة الطيبة — كان قد تكون تكوينا أدبيا طيبا . ولا أدلل على ذلك بأكثر من أنه وصف لنا الأدب فى هذه الحقبة وصفا هو أدق وصف فى موضوعه وأصدقه . قال الامام :

« ... وكانت أسـاليب الكتابة فى مصر تنحصر فى نوعين كلاهما يمجه الذوق ، وتنكره لغة العرب . الأول ما كان مستعملا فى دواوين الحكومة وما يشبهها ، وهو ضرب من ضروب التأليف بين الكلمات رث خبيث غير مفهـوم .

والنوع الثانى ما كان يستعمله الأدباء والمتخرجون فى الجامع الأزهر ، وهو ما كان يراعى فيه السجع وان كان باردا ، وتلاحظ فيه الفواصل وأنواع الجناس وان

كان رديئا فى الذوق ، غير مـؤد للمعنى المقصـود ، ولا ينطبق على أدب اللغة العربية ، ولا يزال هذا النوع موجودا فى أساليب المشايخ خاصة .

« ثم ورد علينا فى أخريات الأيام ضرب آخـر من التعبير كان غريبا فى بابه ، وهو ما جاءنا من الأقطـار السورية فى جريدتى « الجنة » و « الجنان » بقلم المعلم بطرس البستانى ، وهـذا النوع كان يعـد من غرائب الأساليب ... » .

* * *

ثارت نفس الشيخ على هذا الضعف اللغوى ، وقد انبرى لاصلاحه بطريقين : الأول طريق جريدة الوقائع نفسها ، لأنها تقرأ ويقتدى بها ، والثانى طريق الأمر والنهى لأنه كان مديرا للمطبوعات فوق أنه رئيس تحرير الجريدة ، فأقام من ثورته على هذا الجهل — حاكما بأمره ، يأمر الصحف والدواوين بالاصلاح اللغوى ، ويرسم لهـم السبل . وقد بلغ به الشأن فى الاصلاح أن كان ينـذر الصحف بالتعطيل اذا هى لم تصلح لغتها باختيار محررين يحسنون الكتابة ، وكان كثيرون من أصحاب الصحف فى

أيامه أميين أو شبه أميين . كما كان ينذر الموظفين الأميين بالعقاب اذا هم لم يصلحوا لغتهم . وفى هذا العهد أسست مدارس ليلية لنقل حالة الأميين من الموظفين والصحفيين — الى ما هو أفضل منها فى التحريرات والمكتوبات ، كما فرح بذلك الموظفـون الذين هم فى مسـتوى طيب فى الكتابة ، وظهرت كفايتهم فى الدواوين .

نجح الشيخ الى حد كبير فى هذا الاصلاح . وهذا هو أول اصلاحاته التى اقترن بها اسمه الكبير .

* * *

وقبل الانتقال الى كلام جديد أود أن أفكه القارىء بقليل مما كانت عليه لغة بعض الصحف فى هذه الحقبة .

أرادت احداها أن تمتدح الوزير الأكبر رياض باشا فجعلت عنوان قصيدتها :

« دولتلو رياض باشـا بلغـه الله ماشـا

أما القصيدة نفسها فأذكر منها :

يا هنا مصر سناها فى الدجا ضا

واليها الأنس والاسـعاد آضـا

برياض العـدل فيها العزيز كو

بل ويكفى أن للعـدل رياضـا

* * *

أخذ الشيخ ومن اختـارهم من أعوانه فى تحـرير الجريدة الرسمية — يتجهون الى الاصلاح الاجتماعى فى كل نواحيه ، لأن العيوب كانت واضحة ، ومحـاولة اصلاحها بعيدة لا يلتفت اليها أحد .

لم يترك الشيخ عيبا من العيوب الاجتماعية الا عالجه فى ثورة قلمية موفقة ، حتى أنه لما اشتد على ناظر المعارف يومئذ بالنقد — ذهب هذا الناظر الى رياض باشا يشكو اليه الشيخ . ولكن الوزير الأكبر أنصفه لأنه كان على حق فى نقده ، وكان ذلك سـببا فى تكوين أول مجلس معارف أعلى . وقد عين الشيخ عضوا فيه .

* * *

واليك بعض الأمثلة مما كتبه الشيخ فىهذه الجريدة.

جاء فى مقال بعنوان « الشورى والقانون » .

(... ان أفضل القوانين وأعظمها فائدة هو القانون الصادر من رأى الأمة العام ، أعنى المؤسس على مبادىء

الشورى ، وأن الشورى لا تنجح الا بين من كان لهم رأى عام يجمعهم فى دائرة واحدة ، كأن يكونوا جميعا لتعزيز شأن مصالح بلادهم ، فيطلبونها من وجوهها وأبوابها ، فما داموا طالبين هذه الوجوه فهم طلاب الحق ونصراؤه ..) .

وقال ردا على من يقولون أن الدين سبب من أسباب التأخر :

(... كذب الخراصون . ان الدين أول معلم ، وأهدى أستاذ ، وأرشد قائد للأنفس الى اكتساب العلوم ، والتوسع فى المعارف ، وأرحم مؤدب ، وأبصر مروض ، يطبع الأرواح على الآداب الحسنة ، والخلائق الكريمة .. هو الذى رفع أمة كانت من أعرق الأمم فى التوحش والقسوة والخشونة ، فسما بها الى أرقى مراقى الحكمة والمدنية فى أقرب مدة ، وهى الأمة العربية) .

وقال فى الكلام عن مدلول كلمة « الوطن » :

(... وجملة القول أن فى الوطن من موجبات الحب والحرص والغيرة ثلاثة تشبه أن تكون حدودا .

« الأول : أنه السكن الذى فيه الغـذاء والوقاء ، والأهل والولد .

الثانى : أنه مكان الحقوق والواجبات التى هى مدار الحياة السياسية .

الثالث : أنه موضع النسبة التى يعلو بها الانسان ويعز ، أو يسفل ويذل » .

وقال أيضا فى مفهوم « الرأى العام » .

(... أبت الحوادث الا أن تثبت أن لنا وجودا وطنيا ورأيا عموميا ، ولوكره المبطلون . على أن منهم فئـة لا يزالون يؤلمون أسماعنا بما يكررون منسفاسف القول، مثل أننا تعودنا احتمال الظلم والحيف ، وألفنا الخدمة والرق ، فلن يستقل لنا رأى ، ولم نهتد سبيل الحرية ، هم لا يعلمون أن أهل الغرب أجمعين تعودوا مثل هذا الحيف أعصارا ، وكانوا فى قديم الأيام على ضرب من الرق ؛ وانخفاض الجناح ؛ وأن العالم بأسره كان فريقين ؛ أحرارا يظلمون ، وعبيدا يظلمون ..) . بهذه اللغة وبهذه الأساليب ، وبهذه الأفكار والمعانى — كان الشيخ هو المصلح الاجتماعى الجديد فى أيامه وعصره .

العروة الوثقى :

رجلان منفيان فقيران ، كل منهما فى واد ، التقيا على مداومة الجهاد فى سبيل أداء رسالتهما . لا مال عندهما يصدران به جريدة ، ليتها كانت تطبع فى مصر أو فى أى بلد شرقى ، ولكنها كانت تطبع فى باريس ، وهما غريبان عن باريس ، وأهل باريس ، ومطابع باريس .

كأنهما فى حلهما وترحالهما المكلفان وحدهما بتحرير الشرق والشرقيين ، ومناهضة الاحتلال والمحتلين .

كأنهما وحدهما ، اللذان ألقى الله عليهما عبء قضية الاستقلال والحرية فى مصر والشرق .

سمّيا الجريدة (العروة الوثقى) لتكون لسان حال الجمعية السرية التى أسساها لتكون أداة من الأدوات القوية فى أداء رسالتهما . فكانت الصحيفة الأولى فى مادتها ولغتها ومعانيها ومراميها وقوة انتشارها ، على ما كانت تحاط به من الرقابة الانجليزية الواعية .

يعرف بالبداهة أن هذه الجمعية السرية كانت تمد الجريدة ماديا بما تستطيع ، كل على قدر طاقته ، فصدر منها ثمانية عشر عددا ، أولها فى الخامس من جمادى الأولى

عام ١٣٠١ هـ ، وآخـرها فى السـادس والعشرين من ذى الحجة من العام نفسه .

* * *

منهاج الجريدة :

جاء فى المقال الأول بسط لمنهاج الجريدة وأغراضها ، يلخص فيما يأتى :

١ — بيان الواجبـات على الشرقيين ، التى كان التفريط فيها موجبا للسقوط والضعف .

٢ — توضيح الطرق التى يجب سلوكها لتـدارك ما فات ، ويستتبع ذلك بيان أصول الأسباب، ومناشىء العلل التى أفسدت حالهم ، وأعمت عليهم طريقهم .

٣ — الدفاع عما يرمى به الشرقيـون عمـوما ، والمسلمون خصوصا من التهم ، وابطال زعم الزاعمين أن المسلمين لا يتقدمون فى المدنية ما داموا متمسكين بأصول دينهم .

٤ — اشراب النفوس عقيدة الأمل فى النجـاح ، وازالة ما حل بها من اليأس .

٥ — اخبار الشرقيين بما يهمهم من حوادث السياسة العامة والخاصة .

٦ — تقوية الصلات بين الأمم وتمكين الألفة بين أفرادها ، وتأمين المنافع المشتركة بينها .

٧ — تكشف الغطاء ما استطاعت عن الشبه التى شغلت أوهام المترفين ، ولبست عليهم مسالك الرشد ، وتزيح الوساوس التى أخذت بعقول المنعمـين ، حتى أوردتهم اليأس فى مداواة علاتهم ، وشفاء أدوائهم ، فظنـوا أن زمان التدارك قد فات .

على هذه الأسس قامت جريدة (العروة الوثقى) ، تنظر الى العالم الاسلامى كله على أنه وحدة .. مع مراعاة جانب الشرقيين عموما . وقد قالت فى ذلك :

« بلغ الاجحاف بالشرقيين غايته ، ووصل العدوان فيهم نهايته ، وأدرك المتغلب عليهم نكايته ، خصوصا فى المسلمين منهم ، فمنهم ملوك أنزلوا عن عروشهم جورا ، وذوو حقوق فى الأمرة حرموا حقوقهم ظلما ، وأعزاء باتوا أذلاء ، وأجلاء أصبحوا حقراء ، وأغنياء أمسوا فقراء ،

وأصحاء أضحوا سقاما ، وأسود تحولت أنعاما .. » .

ثم تؤكد فى كل مناسبة أنها للشرقيين عامة . ومن ذلك قولها : « ... عملها (الجريدة) سكب مياه النصح على لهيب الضغائن ، لتتلاقى قلوب الشرقيين عموما على الصفاء والوداد . تلتمس من أبناء الأمم الشرقية أن يلقوا سلاح التنازع بينهم ، ويأخذوا حذرهم وأسلحتهم لدفع الضوارى التى فغرت أفواهها لالتهامهم . » .

* * *

تحرير الجريدة :

معروف أن السيد جمال الدين الأفغانى لم يكن يكتب بيده شيئا ، وانما كان يملي ما يريد املاءه على من يكتب له . غير أنه فى (العروة الوثقى) كان يدرس فكرة كل مقال مع الشيخ محمد عبده الى أن تستوى الدراسة وتنضج ، ثم يترك للشيخ الكتابة وحده .

* * *

وصف الجريدة :

وقد كثر الواصفون للعروة الوثقى فى أيامها . وممن

وصفوها حق وصفها الأمير شكيب أرسلان . وصفها فى معانيها ، ووصفها فى أسلوبها .

قال فى الوصف الأول :

ومعــان لو أوحيت لجمــاد
هزه الشوق نحوها والغــرام
حيرت كل ذى حصــاة الى أن
قيــل لا شك أنهــا الهـــام

وقال فى وصفها الثانى :

كلام اذا ألقيتــه فى جمـــاعة
غدا منك مثل اللؤلؤ الرطب ينسق
عليه من النــور الالهى مســحة
تكاد عــلى أرجـــائه تتــألق

* * *

أما تأثيرها فى القلوب : فما كنت بحاجة الى أن أبينه لأنها بطبيعتها وعلو مكانها ، وصفاء الأرواح التى تصدرها ، وأغراضها النبيلة — ليست بحاجة الى أن يقال أنها أثرت في العالم الشرقي كله .

فاذا أنا — وهذه حالها — ذكرت تأثيرها على بعض العظماء فان ذلك للتسجيل التاريخى ليس غير .

١ — روى السيد رشيد رضا أنه سمع من محمد بك على قوله :

« كنت فى بغداد فى عهد صدور العـــروة الوثقى ، وكانت ترسل الى الزعيم العربى الأكبر السيد سليمان الكيلانى نقيب السادة الأشراف ، وكان يقول كلما جاءه عدد منها : يوشك أن تقع ثورة من تأثير هذه الجريدة ، قبل أن يجيء العدد الذى بعد هذا :

٢ — كما روى السيد رشيد أيضـــا — « سمعت أستاذنا الشيخ (حسين الجسر) — عالم سورية الوحيد فى الجمع بين العلوم الاسلامية ، ومعرفة حـــالة العصر السياسية والمدنية — يقول :

(ما كان أحد يشك فى أن جـــريدة العروة الوثقى ستحدث انقلابا عظيما افى العالم الاسلامى لو طال عليها الزمن) .

٣ — ويقول لنا السيد رشيد :

(والذى علمتـــه عن نفسى بالخبرة ، ومن غـــيرى

بالخبر ، ومن التاريخ ، أنه لم يوجد لكلام عربى فى هذا العصر ، ولا فى قرون قبله ما كان لها (الجـريدة) من اصابة مواقع الوجدان من القلب ، والاقناع من العقل .

٤ — ويحدثنا السيد عبد القادر المغربى عضو مجمع اللغة العربية :

« ... فالأفغانى وعبده كانا يريدان أن يكون لهؤلاء الضعفاء المسلمين — دولة قوية مع مراعاة تعاليم الاسلام ، هذه الفكرة التى تلقفتها من العروة الوثقى اختمرت فى نفسى ، واستولى سلطانها على شعورى وحسى ، فأعطيت العروة كل وقتى ، دراسة وتفهما » .

هذه بعض أقوال المعاصرين للعروة الوثقى — فى تقديرهم لها ، وفى أثرها فى نفوسهم ، وما تركت فى ذلك أكثر مما ذكرت .

* * *

نهاية الجريدة :

وان تعجب فعجب ، أن يثور الانجليز على جـريدة كانت لم تظهر بعد . وكان من أمرهم فى ذلك أن مراسلى صحفهم فى باريس علموا أن جـريدة للسيد الأفغـانى

والشيخ محمد عبده ستظهر فى هذه المدينة ، فأخـذوا ينقلون هذا الخبر الى لندن وكأنه من الأخبار الدولية الهامة .. ! حاثين دولتهم على محاربة هـذه النية من الرجلين ، ولكن الله قدر للجريدة أن تظهر ، وأن تنتشر ، فترسل الى مصر والهند والسـودان والعراق وشـمال افريقية وسورية والملايو ، وغيرها ، ولكن الانجليز كانوا يتعقبونها خطوة خطوة — الى أن حملوا مجلس وزراء مصر على أن يمنع دخولها . وقد جاء فى عددها التاسع (٢٥ رجب سنة ١٣٠١) الخبر الآتى :

« انعقد مجلس الوزراء بالقاهرة ، واهتم بالبحث فى شأن (العروة الوثقى) ، ثم أصدر قرارا بمنع الجريدة من دخول الأقطار المصرية .

ثم أخذوا يقفلون الأبواب الأخرى فى وجهها ، فمنعوا دخولها الهند والسودان ، وكل بلد لهم نفـوذ فيه ، فلم يجد الرجلان العظيمان بدا من أن يقفاها عن الصدور ، وبذلك انتهت رسالتهما فى باريس ، ثم افترقا الى الأبد ، ولم يلتقيا .

* * *

بعد العودة من باريس :

عاد الشيخ الى بيروت ، بعد انتهاء رسالته فى باريس فماذا صنع ؟

أخذ يملأ الأجواء السورية علمـا ومعرفة ، تارة فى المدرسة النظامية ، وتارة فى منزله الذى كان أكبر منتدى للاجتماع والاستماع .

كل هذا لا يعنينى التحدث عنه بالتفصـيل ، وانما الذى أخصه بالقول هو روح الاصلاح ، والثورة على الفساد ، التى لم تفارق نفسه يوما ، فى وطنه مصر ، وفى غير وطنه أينما حل ، وأينما ارتحل .

كتب الشيخ وهو فى بيروت لائحتين للاصـلاح ، أولاهما موجهة الى شيخ الاسلام فى الاستانة ، وثانيتهما خاصة باصلاح القطر السورى ذاته .

رأى فى اللائحة الأولى أن أحوال الدولة العثمانية التى هى الرأس لأعضاء الأسرة الاسلامية وشعوبها — قد انتابها ما انتابها من أمراض وأسقام ، وفوضى وفساد فى كل أمورها . فكتب الى شيخ الاسلام بذلك تقريرا مطولا ، عين فيه الداء ، ووصف فيه الدواء ، ولم يغادر فيه علة

هادمة الا تحدث عنها ، تحدث فيما تحدث عن طبقة من طبقات الشعب ، هى مناط الأمل ، ومنتهى الرجاء ، فى المحافظة على الأوطان ، والدفاع عنها اذا ما قصدها قاصد بسوء . هى طبقة رجال النظام العسكريين ، فصورها فى الدولة العثمانية بصورة مفزعة ، يطير لها القلب شعاعا ، والنفس حسرة .

قال الامام يصف هذه الطبقة :

« ... ولهذا رأينا كثيرا ممن قرأوا العلوم فى المدارس العسكرية وغيرها خلَوا من الدين ، وجهالا بعقائده ، منكبين على الشهوات ، وسفاسف الملذات ، لا يخشون الله فى سر ولا فى جهر ، ولا يراعون له حكما فى خير ولا شر ، وانحط بهم ذلك الى الكلب فى الكسب ، والانصباب الى التوسع فى العيش ، لا يلاحظون فيه حلالا ولا حراما ، ولا طيبا ولا خبيثا . فاذا دعوا الى الدفاع عن الملة والدولة ركنوا الى الراحة ، ومالوا الى الخيانة ، وطلبوا لأنفسهم الخلاص بأية وسيلة » .. ؟ .

واللائحة الثانية يوجهها الى والى بيروت (التركى) مطالبا اياه باصلاح القطر السورى معللا ذلك بقوله

« ... فهذا الذى أزعج همى للفكر فى أحوال هذه البلاد ، مدة اقامتى بها ، غريبا عن أهلهـا ، مفكرا فى مجـارى أعمالهم ، ومآخذ مشاربهم ، وضروب مذاهبهـم ، من وجه ما يتعلق بالدولة .. وهو الذى بعثنى على أن أعرض ما ألمت به من ذلك على مقام دولتكم .. » ، والتقرير طويل كالذى سبقه .

* * *

ولست أطيل الكلام فى هذا التقرير الطويل الشامل لأن غرضى من هـذا الحديث هو أن أعرف — ويعرف القراء معى — أن نفس الشيخ قبل النفى هى نفسه فى جريدة العروة الوثقى ، ثم هى نفسه فى منفاه بيروت . انه مصلح كل فساد رآه فى أى بلد شرقى ، وثائر على كل معوج فى الشئون أينما كان .

* * *

والآن ينتقل بى الامام المصلح نقلة أخرى ، فى أحداث جريدة ، بعد انتهاء مدة نفيه ، ورجوعه الى مصر .

فى مصر بعد العودة :

رجع الشيخ الى مصر عام ١٣٠٦ هـ ، ولم ينس حنينه

الى القلم ، وصناعة القلم فأخذ يكتب ، ويحرر — كعادته تارة فى (المنار) وتارة فى مجلة (الجامعـة العثمانية) بالاسكندرية ، وثالثة فى جريدة (المؤيد) التى أكثر فيها الكتابة فى هذه المرحلة من حياته .

لفت نظرى فيما كتب فى هذه الحقبة مقالان جديران بأن ألقى اليهما بالا .

جاء فى المقال الأول فى وصف الرجل الكبير :

« ... الرجل الكبير يحس ويتألم ، ويدفعه الألم الى أن يتكلم ، بل تحمله شدة الألم على أن يجاهد فى قومه وهم أحب الناس اليه ، ويقاتلهم ليدافع عن موارد الهلكة وهم أعز الخلق عليه ، ولكن قد يبلغ بهم العمى أو قصر البصر أن يعدوه عدوا لهم ، وكلما دعاهم الى الحـركة دعوه الى السكون ، وكلما أخذ بهم الى الفزع جذبوه الى الركون ، وهم أكثر منه عددا ، وأوفر عددا فلا يمضى طويل من الزمن حتى يخفت صوته من كثرة الصـياح ، وينقطع نفسه من الدعوة الى الاصلاح ، وتضعف عزيمته، وتضمحل همته ، فاذا جاءهم عدو .. وأحسوا بشـدة الصدمة صاحوا ولكن صياح الثاكلة العاجزة ، تنفس

الصعداء ، وحسرة تصعد الى السماء ، مع القعود فى المساكن ، والخلود الى أخس المنازل ، فينتهى بهم الأمر الى الاضمحلال ، وما بعد الاضمحلال الا الزوال .

« ان كان ما بالأمة ليس نوما ؛ فيزول بالايقاظ ، ولا غفلة ؛ فتذهب بالتنبيه وانما هو خدر شلت به الأعصاب ، وذبلت به العروق ، فماذا يكون فعل الرجل الكبير ؟ يجهد عقله فى البحث عن الدواء ، ويستعمل ما لديه من قوة فى معالجة الداء ، وهيهات أن يشعر به المريض ، بل هو تارة يضحك ضحك المستهزىء ، وأخرى يبكى بكاء اليائس وتارة يضرب الطبيب بما حضر لديه ، أو بيديه ورجليه حتى يقضى عليه ...

واذن فما الذى يصنعه الرجل الكبير ؟ يسعى ويجد ، ثم يموت محروما من ثمرة عمله ، باكيا على خيبة أمله .

« ولكن هل كل ذلك يقضى على الرجل الكبير بأن يصغر ؟ وهل يحكم على العظيم فى نفسه بأن يحقر ؟ كلا . فانما هو يؤدى واجبا عليه ، والله وراء ذلك والمرجع اليه » .

وجاء فى المقال الثانى فى وصف المصلح الحاكم القوىّ :

« ... يكره المتنافرين على التعاون ، ويلجىء الأهل الى التراحم ، ويقهر الجيران على التناصف ، يحمل الناس على رأيه فى منافعهم بالرهبة ، ان لم يحملوا أنفسهم على ما فيه سعادتهم بالرغبة ، عادل لا يخطو خطوة الا ونظرته الأولى الى شعبه الذى يحكمه ، فان عرض حظ لنفسه فليقع دائما تحت النظرة الثانية ، فهو لهم أكثر مما هو للنفس ...

* * *

وبعد فلقد كان الامام كله اصلاحا ، فقد عرفنا أنه أصلح اللغة العربية . وأساليبها — فيما مضى لنا من القول اصلاحا فعليا ، وحاول محاولة المخلص الاصلاح الاجتماعى فى الجريدة الرسمية ، فلم يترك عيبا رآه الا وكتب فى علاجه كتابة المطلع على أحوال عصره وأيامه، مما دلنا على أنه لم يكن من المتباعدين عن أهلهم وذويهم ، أو المنكمشين فى حجرة من الحجر لا يطلون على العالم ، ولا يراهم العالم .

وكان لآرائه فى مقالاته التوجيه السليم ، والارشاد المستقيم ، كما أصلح لغة السياسة بمقالاته فى (العروة الوثقى) فلقد كان أسلوبها رفيعا لم يكن يعهده الناس فى لغة الصحف والمجلات فى ذلك الحين اطلاقا ، وكان يقصد باصدار هذه الجريدة — اصلاح أحوال الشرق والشرقيين .

للشيخ اصلاحات غير ما سلف ذكره مما لم يسعنى عنها البحث ، وما ينبغى لى أن أغفل ذكرها وأنا فى آخر مرحلة من التحدث عن الامام المصلح الكريم .

حاول الشيخ اصلاح الدين بارجاعه الى ينابيعه الأولى ، التى استقى من مائها ، فأينع وأثمر ، وغير وجه الحياة كلها تغييرا ، ولولا وقوف الخديوى عباس له بالمرصاد فى عداوته له هو والجامدين من الشيوخ — لنجح الشيخ فى اصلاحه الدينى ، أو لا أقل من أنه كان سيقطع فيه خطوات من خطواته الواسعة القوية .

أخذ يصلح الآداب العربية — وهو طور من اصلاحاته فى هذا الاتجاه غير ما تقدم له من اصلاح لغوى وهو فى جريدة (الوقائع) مديرا للمطبوعات فى شبابه — ان هذا

الطور الأخير من اصلاح الآداب كان فى أواخر مراحل حياته : عام ١٣١٨ هـ .

بدأه بطبع كتاب (المخصص) لابن سيده ، وقد جند لتصحيحه نفسه أولا ؛ وثانيا اللغوى الكبير الشيخ محمد محمود الشنقيطى . كما اختار أيضا كتابين للشيخ عبد القاهر الجرجانى مؤسس علوم البلاغة ، هما (دلائل الاعجاز) و (أسرار البلاغة) .

ثم اتجه أيضا الى اصلاح المحاكم الشرعية ، ووزارة الأوقاف ، والأزهر . ولولا وقوف الخديوى له بالمرصاد هو وحاسدو فضله من العلماء — لنجح فى كل ما اتجه اليه من اصلاح .

ولما لم تنله الظروف مأربه فى اصلاح الأزهر ، رأى — كما روى لنا الشيخ رشيد رضا — أن تنشأ جامعة فى مصر لتوجد فيها طبقة من العلماء الباحثين ، والفلاسفة المفكرين ، وقد اتخذ لذلك جميع الخطوات العملية التى انتقل بعدها بأسبوع واحد الى رحمة الله . فى جمادى الأولى سنة ١٣٢٣ (يولية سنة ١٩٠٥) .

عبد العزيز جاويش

١٨٧٦ – ١٩٢٩

طلب العلم بالأزهر سنة ١٨٩٢ ، ثم طلبه بدار العلوم وتخرج فيها سنة ١٨٩٧ ، ثم أرسل فى بعثة وزارة المعارف الى انجلترا وعاد منها سنة ١٩٠١ ، وعين مفتشا على المدارس ، وقد رأى أن الحاجة ماسة الى مؤلف يرشد المدرسين الى طرق التعليم السليمة والتربية الحديثة ، فألف أول مؤلفاته فى هذا الغرض الطيب وسماه (غنية المؤدبين) عام ١٩٠٣ ، وكذلك رأى بعض الملاحظات على طريقة تعليم الترجمة فألف فى ذلك كتابه الثانى (مرشد المترجم) .

اختارته وزارة المعارف سنة ١٩٠٤ أستاذا لتدريس اللغة العربية وآدابها بجامعة اكسفورد فى بلاد الانجليز ، وهناك ألف كتابه القيم (الاسلام دين الفطرة) ، وهو

الكتاب الذى قدمه الى مؤتمر المستشرقين فى الجزائر سنة ١٩٠٥ ، لما أنابته الحكومة عنها لتمثيلها فى هذا المؤتمر .

عاد الشيخ من انجلترا سنة ١٩٠٦ ، وعين مفتشا أول بوزارة المعارف ، وهنا يبدأ تاريخ جديد للشيخ عبد العزيز جاويش .

مات مصطفى كامل وصارت رئاسة تحرير اللواء خالية فلم يجد لها الزعيم محمد فريد قلما يملؤها غير قلم الشيخ جاويش فاختاره ، وقد قبل هو هذا الاختيار عن طيب خاطر واستقال من وظيفته الكبرى سنة ١٩٠٨ .

حكم على الشيخ بالسجن مرتين لثورة قلمه على المحتلين وعلى الحكومة ، ثم أبعد الى تركيا — تخلصا منه ومن قلمه — سنة ١٩١٢ فطاف بكثير من البلاد الاسلامية ، يؤسس الجامعات والمجلات ، ويرأس المؤسسات الدينية ، الى أن انتهى به المطاف الى ألمانيا ثم عاد الى تركيا يطلب من الغازى مصطفى كمال رآسة مؤسسة علمية كبرى . غير أن الخلاف دب بينهما — لأن

تصرف الغازى فى أمر الخلافة الاسلامية لم يرق الشيخ ، فعاد خلسة الى مصر سنة ١٩٢٣ .

* * *

الحديث عن الشيخ عبد العزيز جاويش

فى ثورته القلمية التى لازمته من يوم أن ترك وظيفته وفضل عليها العمـــل الوطنى تحس منها بكهربية قوية التأثير لا فى الأجسام ولكن فى القلوب والأفئدة .

هذه الكهربية هى روح الزعيم مصطفى كامل ، التى ملأ بها الجو المصرى ، والاسلامى ، هى حركة لا تهدأ ، ونشاط لا يهن ، وصلصلة كصلصلة البواتر فى ميدان الوغى لا تلين حتى تقطع ، أو تفل .

مصطفى كامل زعيم عهد من أقوى عهود الوطنية ، وأكبرها أثرا ، تخرج فيه أحرار ، وظهرت أقلام وثارت أفئدة ، كان من أظهرها الشيخ عبد العزيز جاويش .

جاء هذا العهد بعد ثورة أحمد عرابى . وقد تبدلت الأحوال ـــ يأسا بعد أمل ، وخيبة بعد رجاء ، وقعودا بعد قيام ، وقد احتل الانجليز مصر ورســخت أقدامهم بها ، وصاروا هم حكامها وسادتها .

هذا العهد امتدت روحه الفياضة من زمن صاحبه مصطفى الى ثورة سـنة ١٩١٩ ، فلم نر فيمن كتبـوا أو خطبوا بين الثورتين الا تلاميذه ومريديه وأصفياءه ، وفى مقدمتهم الخليفة — ونعم الخلف — محمد فريد .

* * *

فى ابتداء هذا العهد ظهر عبد العزيز جاويش خليفة لمصطفى كامل فى تحرير (اللواء) . وكان شعاره (اما الى الصدر واما الى القبر) .

* * *

تحدث عن الشيخ عبد العزيز جاويش أصـحاب الرأى الأول فى التحدث عن الرجال فى أيام وزنت فيها أقدار البارزين بميزان الثقة والصدق .

وممن تحدث عنه مؤرخ قوميتنـا الكبير الأستاذ عبـد الرحمن الرافعى بما نصـه « ... فى منتصف سنة ١٩٠٨ اختار الفقيد (محمد فريد) لرياسة تحرير اللواء المرحوم الشيخ عبد العـزيز جاويش ، وكان قد تعرف عليه لأول مرة فى مؤتمر المستشرقين بمدينة الجزائر سنة ١٩٠٥ ، وعرفه بمصطفى كامل سنة ١٩٠٦ بباريس ،

فتمكنت بينهم أواصر الصداقة والميول الوطنية ، فلما رأى (محمد فريد) أن (اللواء) فى حاجة الى رئيس تحرير كفء لهذه المهمة عرضها على الشيخ (بعد وفاة مصطفى كامل) « وكان يومئذ مفتشا بوزارة المعارف فقبلها ، وبدأ يكتب فى اللواء يوم ٣ من مايو سنة ١٩٠٨ » .

قد يبدو غريبا لأول نظرة ألا يجد الزعيم محمد فريد فى طول حزبه وعرضه — كفئا تسند اليه رياسة تحرير (اللواء) فاختار لها الشيخ ، ومعروف أن الحزب الوطنى حزب الحماسات ، والدراسات ، والثقافات ، والشبيبة الزهراء ، والمقدمون من رجال مصر ، وناهيك بحزب فريد — خليفة مصطفى — انه يعرف لكل بارز من حزبه اختصاصه ، وما يجيده من عمل ، وما يصلح له من قول وبيان .

ثم ما ظنك بأن الزعيم محمد فريد نفسه لم يقف تقديره للشيخ جاويش عند هذا الاختيار وحسب ، وانما كان يختصه فى كل مناسبة بالثناء الطيب واليك من ذلك شاهدا ، هو ما رواه لنا الأستاذ الرافعى أيضا ، فى كتابه (محمد فريد) فى اجتماع الجمعية العمومية للحزب الوطنى

فى سبعة من يناير سنة ١٩١٠ وكان خطيب الاجتمـاع الرئيس محمد فريد . وقد تحدث عن الشيخ عبد العزيز جاويش بما نصه :

« ... وأخيرا رفعت الدعوة على الشيخ عبد العزيز جاويش بسبب مقالة (ذكرى دنشواى) فحكم عليـه بالحبس ثلاثة أشهر .. ودخل السجن محترما ، وخرج منه أكثر احتراما ، وأعلى مقاما مما دخله ، وقد برهنت الأمة على اكرامها له .. بأن قدمت له وساما ، احتفلت بتقديمه له يوم خروجه فى ٢٢ نوفمبر سنة ١٩٠٩ فى حفلة كبرى فى نزل (شيبرد) ، كما أظهـرت الشـبيبة الأزهـرية والمدرسية اكبارها له بمظاهرة كبرى » ..

والرجل الذى كان لسان الزعيم محمد فريد لا ينساه فى كل مناسبة ، جدير بى أن أذكر قلمه فى الأقلام الثائرة ، وأن أعطيه حقه فى هذه المناسبة التى هو من خيرة أهلها ؛

* * *

والآن أقف من كلام الأستاذ الرافعى موقف التحليل فى علاقة الشيخ بمصطفى كامل ومحمد فريد . انه يقول لنا أن فريدا تعرف به فى مدينة الجزائر عام ١٩٠٥ . ثم

عرفه بمصطفى كامل عـــام ١٩٠٦ بباريس فتمكنت بين ثلاثتهم أواصر الصداقة ، والميول الوطنية ، ومعروف أن صداقة الزعيم لم تكن من نوع الصداقة التى يحددها بين الصديقين مجرد تعارف ، ومجرد تبادل الود ؛ وانما هى صداقة عاملة ناصبة ؛ تعطيها نفس مصطفى لونا من الجد أكبر الجد ، ومن المشاركة فى الجهاد ولو الى حد يُعيِّنه استعداد الطرف الثانى لبذل القدر الذى تحتمله حالته من التضحية ، والميول والوطنية ، وأبرىء تفكيرى من الزلل اذا أنا جزمت بأنه كان بينهما وبين الشيخ مقابلات وزيارات ، وتبادل ود ، وصفاء ، ابتداء من سنة ١٩٠٥ حين عرفه محمد فريد ، وقد نمت بينهما الصـــداقة الى عام ١٩٠٦ حين عرفه بمصطفى كامل بباريس ، ومعروف بالضرورة أن فريدا لا يقدم لمصطفى كامل شخصية فيها شىء من الهزال أو الضعف فى أى ناحيـــة من نواحيها ؛ وانما قدم له شخصية توثقت بينهـــا وبين مصطفى كل صداقة وميول وطنية ؛ وكفى بهذا التوثق دليلا على كبر شخصية الشيخ . كان ذلك أيام كان الشـــيخ لا يزال مفتشا بوزارة المعارف فلم تمنعـــه قيـــود الوظيفـــة ؛

ولا محبسها ، الذى كان يحبس فيه الموظفون عن الاتصال بهذا الثائر الأكبر ، مصطفى كامل — والا فالجزاء معروف وهو الحرمان من عيش الوظيفة والفصل منها ، من مصادقة مصطفى وفريد ، ولم يقبل اذن أن يكون مقيدا بالأغلال والسلاسل ، ولا محبوسا فى (قفص) الوظيفة الحكومية ، ولذلك لم يطل بحث فريد خليفة مصطفى بعد وفاته فى أن يجد الوطنى الكفء بقلبه وقلمه ليرأس تحرير جريدة اللواء ، وجده فى شخص الشيخ جاويش ، وبحسب الشيخ هذا التقدير فى ابتداء عمله القلمى الحر .

* * *

بماذا بدأ الشيخ حياته القلمية الثائرة التى ناب فيها عن أكبر قلم ثائر فى هذه الحقبة .. ! ، وكيف وصف وصفا دقيقا حالاته الخاصة فى عمله الجديد ، وحالات عصره فى السياسة وفهمه دقائقها ، وحالات الفرق الكبير الذى صوره قلمه — بين حياة الوظائف الحكومية ، وبين العمل الوطنى الارشادى الحر ؟ . وبالتلخيص كيف كشف لنا عن مكنون ضميره بقلمه القوى المبين ؟ وكيف وضع منهاجه فى حياته الجديدة ؟

كتب الشيخ أول مقــال له باللواء فى ٣ من مــايو عام ١٩٠٨ ، هذا نصه :

« ... بعونك اللهم قد استدبرت حياة زادها الجبن وخور العزيمة ، ومطيتها الدهان والتلبيس فى أسواقها النافقة ، تشترى نفيسات النفــوس بزيوف الفلوس ، وتباع الأمم والسرائر بالابتسام وهز الرءوس ، وبيمنك اللهم استقبل فاتحة الحياة الجديدة ، حياة الصراحة فى القول ، حياة الجهر بالرأى ، حياة الارشاد العام ، حياة الاستماتة فى سبيل الدفاع عن البلاد العزيزة .

استقبل هذه الحياة بعد أن قضيت فى سابقتها ثمانى حجج ، بلغت فيها ذلك المنصب ، الذى كنت فيه ما بين محسود عليه ، ومرجو فيه .

استقبل هذه الحياة المحفــوفة بالمخاطر ، منبريا فى ميدانها ، فاما الى الصدر واما الى القبر ، موقنا بما أعده الله لعباده العاملين المخلصين ، من الظفر والفتح المبين ، عارفا أن :

الحى لا يمـــوت الا مـرة

والموت أحلى من حيــاة مرة

وكيف لا نقدم من أنفسنا قرابين بين أيدى أهرام هذا القطر ونيله ؟

أم كيف لا نبذل كل مرتخص وغال فى سبيل تحريره ، وقطع اليد الغاصبة له جزاء بما كسبت ، فلنستمسك بذلك المبدأ الشريف ما حيينا ؛ ولنعتصم به ما بقينا ، ولنرفع أصواتنا حتى نطرق بها أبواب السماء ، فنستنزل المقت والسخط على من دخلوا بلادنا ، وقبضوا بأيدى جبروتهم على نواحينا ، واستخدموا فى سبيل اصابة غرضهم أفرادا اذا ما لقوكم قالوا انا لكم ، واذا خلوا الى شياطينهم قالوا انا معهم انما نحن مستهزئون ، أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم ، وما كانوا مهتدين .

وسيسير اللواء كما كان عليه ، خادما للأمة المصرية ، مدافعا عن الأريكة الخديوية ما حرصت على مصلحة رعاياها ، مجاهدا الانجليز ما بقوا فى بلادنا ، حاثا على الفضيلة والأخلاق الكريمة ، داعيا الى توحيد عناصر الأمة على اختلاف مللها ونحلها ، وتباين مشاربها ولهجاتها ، فاللهم أسألك لسانا ناطقا بالصواب والحكمة ،

وقلما لا جولة له فى ميادين القحة ، ولا علم له بمعاهد الفحش والسباب ؛ فما أحوج الأمة الى كلمة حق يستمعونها ، وجميل عظة يَعُونها ، وما أحرى الجرائد أن تتضامن وتتعاون على البر والتقوى ، وما أخلقها أن تجتمع حتى تكون يدا واحدة على أعدائها ، يحذرونها ، ويخشون بطشها ، وما أجدرها أن تعلم أنها بتفرقها وتخاذلها انما تشمت عدوا مبينا ، وتكمد صديقا شفيعا ، فأرسل اللهم على قادة هذه الأمة ومرشديها من عندك روحا يجمع شتيتها ، ويوحد كلمتها ، ويعصم أقدامها من الزلل ، وآراءها من الخطأ والخطل .. » .

* * *

فى هذا المقال تستطيع أن تلم بآمال الشيخ وآلامه ، وباتجاهاته ومناهجه الجديدة ، بعد تضحية كبرى كانت غريبة على هذا العهد الذى استقال فيه الشيخ من منصبه الذى يصفه بأنه كان فيه بين محسود عليه ومرجو فيه . فلقد كانت صغرى الوظائف فى ذلك العهد معبودة ، لأنها مادة الحياة والعيش ، فما ظنك بمنصب كمنصب الشيخ ، انه تركه استجابة لضميره أولا ، ونزولا على

اختيار الزعيم محمد فريد له فى رياسة تحرير اللواء ، خليفة لمصطفى كامل فى أوسع آفاقه ، وهذا هو ابتداء الشيخ فى الصحافة ، كما لا يفوتنى أن أثبت للشيخ بعض مقال كتبه ، بعد أن عاد من منفاه فى ١٣ ديسمبر عام ١٩٢٣ .

ولقد عاد الشيخ بطريقة سرية ، وكتب المقال وأرسله الى الصحف قبل أن يظهر للعيان ، لأنه لم يظهر الا بعد أن استوثق من أن الحكومة لا تمانع فى ظهوره ما دام لا ينتهج نهجا معاديا لها .

والمقال بعنوان (تجديد العهد) واليك بعضه :

« . لشد ما وددت أن تسلك الحكومة المصرية فى معاملتى مسلك الكياسة فى السياسة ، فتذكر سابق جهادى فى سبيل بلادى ، وابتعادى عن عزيز قومى وأولادى ، ثم تحترم ذلك المقام الذى أحرزته فى تركيا وغيرها من الممالك ، أرفع به ذكر مصر فى الأمصار ، وأحارب ما يدبره العداة الأشرار .

لجأت الى الحكومة أستميحها الأذن لى فى العودة ، ثم جعلت أرقب ذلك الأذن زهاء أربعة شهور .

لم أفعل ذلك لأن الاذن بعودتى من المنح والأعطية التى تجود بها أيدى المحسنين ، فان ذلك حق خوله الدستور لكل مصرى . فمن الخطأ توهم أن تنكره على حكومة دستورية ؛ ثم لم أفض تلك الشهور بالانتظار الممل ، لأن بيد الحكومة مفاتيح البر والبحر ، وطرائق السماء والأرض ، وأبواب الولوج والخروج ، وسلالم الهبوط والعروج ، فلا تتحرك نسمة الا بأمرها ، ولا تنتقل قدم الا بعلمها . فها أنا اليوم بمصر بعد أن مللت الانتظار ، وأشهدت على مسلكها المعوج سائر الأقطار . استعنت القادر على كل شيء ، فقدمت حيث شئت ، ودخلت من حيث شئت ، وأقيم الآن حيث شئت ، فهل رأتنى عيونها الساهرة ، أو صدمتنى قوتها القاهرة ؟ على أننى لو شئت لأتيت من قبل ، ولكن أبى على أدبى أن آتى البيت الا من بابه ، أو أدخله الا بعد استفتاحه ، ولا أخالنى بعد الذى فعلت الا مقدرا بنى وطنى الأعزة .. » .

الى أن يقول :

« ..أى قومى لو كنت ممن لا يحيون الا فى أجواء

الاعلانات الأمريكية ، أو الذين لا هم لهم الا أن يحمدوا بما فعلوا ومالم يفعلوا ؛ أو لو كنت من المؤلفة قلوبهم الذين يمنون على الوطن وهم حديثو عهد بما يظهرون من الهداية والتوبة والوطنية ، لو كنت من هؤلاء لما تقاذفتني البلدان ، وطرحت بي الظروف الى صخور الشدائد ، لأنكسر عليها ولتهيلت على هذا الوطن من تراب المزاعم والدعاوى ما يجعله مني كالمقبور فينهال عليه التراب ، فلم يبق بعد سوى القبر المعرب عن نفسه ، القائم على من في جوفه ، بينما ذلك الدفين يعجب كيف تزين الحجارة باسمه ، وتخلفه في أهله وقومه ، على أنه لا يعوزني بحمد الله ما أملأ به أنهار الصحف من الحقائق التي أحصاها التاريخ ، لو كنت من أرباب الاعلانات الأمريكية ، ولكنني ذلك الجندي الذي لا يتكلم الا سلاحه ، والخادم الذي لا يعرف غير وظيفته .

اننى ذلك الجندى الذى يحيى بلاده بموته ، ويسعدها بشقائه ، ويديمها بفنائه ، وما أنا بالذى لا يشتغل الا نائبا ، ولا يعيش الا رئيسا ، فلتكن نتيجة

الانتخابات ما شاءت الأقدار ، فانني لا أنفك قائما على العهد الذى قطعته على نفسى أمام الله وأمام وطنى) .

* * *

هذان المقالان : مقال الابتداء ، ومقال الانتهاء ، كأنهما دفتا كتاب ملىء أدبا وثورة على الحكم ، وعلى سياسة المحتلين .

يكتب الشيخ مقالا فى ذكرى حادثة (دنشـــواى) فيحاكم ويسجن ، ويكتب مقالا أدبيا بحثا يقدم به ديوان شعر للشيخ على القاياتى عام ١٩١٠ فيحاكم ويحبس .

يقدر الشعب الشيخ قدره ، ويثور ثورته لهـــذه الأحكام المتتالية بسجنه ، ويعده أول من زج به فى غيابة السجون ، ويعرف كيف يجيب الحكومة بأفضل جواب على هذا الاضطهاد المســتمر ، فيهدى اليه وســـاما سنة ١٩١٠ سماه (وسام الشعب) فى حفل هو الأول من نوعه ، كما أن الوسام هو أول هدية شعبية تهدى الى زعيم كاتب .

* * *

لم تقف بالشيخ وطنبته فى حدود مخاصمة الانجليز

وحكومات مصر التى تنفذ أوامرهم . ولكنه نظر نظرة أوسع فى هذا الميدان فأراد أن يقرن جهوده السياسية بجهوده الثقافية للمسلمين فأنشأ لذلك (مجلة الهداية) .

هذه الفكرة الثقافية كانت عند مصطفى كامل قبل الشيخ جاويش فقد أسس صحيفة اسلامية بجانب اللواء سماها (العالم الاسلامى) وكذلك كانت قبل هذا وذاك — عند الامام محمد عبده فلقد أعان بكل أنوع المعونة — السيد محمد رشيد رضا فى اصدار مجلة (المنار) لتثقيف العالم الاسلامى .

وهنا فرصة مواتية لأن أذكر رأى الامام محمد عبده فى ذلك . انه كان يرى التثقيف العلمى أساس الدعوات السياسية الاستقلالية الناجحة . فمن أصول دعوات الاستقلال أن يكون المسلمون على درجة من الثقافة التى تنير البصائر وتهذب النفوس والعقول ، وعلى هذا الأساس أعان بجاهه — السيد رشيد رضا فى اصدار مجلة (المنار) التى كان لها فى العروبة والعرب تأثير .. أى تأثير .

وعلى هذا الأساس أيضا أصدر الشيخ عبد العزيز

جاويش أول عدد من (الهداية) فى المحرم سنة ١٣٢٨ — فبراير سنة ١٩١٠ وقد جاء فى مقدمتها ما يشير الى الغرض من اصدارها . قال : « أما بعد فان من يلقى على أحوالنا نظرة تبطنها أو يجيل فيها فكرا فينفذ شعاعه منها الى الصميم — يرى آفات فاشية وخرافات غاشية . وفوضى ممتدة العرق لم يخل لنا منها شأن .. » .

والمقدمة طويلة اكتفينا منها بهذا القدر الذى يدل على اتجاه صاحبها فى الاصلاح الذى انتواه باصدار هذه المجلة (الهداية) .

أما أبوابها الثابتة فقد لخصها فى المقدمة أيضا وهى — أسرار القرآن — اللغة والأدب — شذور علمية — الحوادث والأجيال — العالم الاسلامى — التربية والتعليم — أسئلة وأجوبتها — الأحاديث الموضوعة — المنبر العام ..

وقد استقبلتها جميع الصحف العربية بكل ترحيب وتقدير بعد صدور العدد الأول منها .

ولقد ظل الشيخ يصدر هذه المجلة القيمة الى أن أبعد عن البلاد سنة ١٩١٢ . وقد أدت رسالتها خير أداء .

كتب الشيخ وخطب ، وهو مبعد عن مصر ، ولم ينس قضية التحرر والاستقلال ، بل أعطاها من عنايته قسطا كبيرا ، على ضيق حاله فى عيشه وتبلبل خواطره فى اغترابه .

من ذلك ما رثى به الزعيم محمد فريد وهو أمامه جثة هامدة — بعد أن توفى بألمانيا ، وما أحفل هذه الخطبة بالذكريات الخالدات ، انها من وطنى غريب ما زال حيا — يرثى عظيما مات مغتربا ، وناهيك بلوعة غريب يرثى غريبا .

جاء فى هذه الخطبة :

« أيها السادة ، أمام جثة هامدة ، وميت لا يعى ، نحن واقفون .. كلا . ثم كلا .. انما نحن وقوف أمام صفحات من تاريخ الجهاد الأكبر فى سبيل الحرية البشرية ، فى سبيل الذود عن الحقوق الطبيعية للشعوب ، فى سبيل مصارعة الأمم القوية ، ذوات المطامع .

« نحن وقوف أمام هذا الراحل الكبير ، الذى كانت حياته مثالا كاملا للمتشبهين ، وقدوة صالحة للعاملين .. لقد رأيناه رحمه الله يوم ساقه الانجليز الى السجن

بمصر ، فما كان اذ ذاك أقل ابتسامة منه يوم فارقه بعد ستة شهوركاملة قضاها فى غياباته وظلماته .

ضيق الانجليز المذاهب عـلى فقيدنا ، وأخـذوا الأبواب والمسالك على قلمه ولســانه ، فلم ير بدا من مفارقة وطنه وأولاده وعشيرته ، اذ خرج يلتمس فضاء يسمع صيحاته التى ضاق عنها فضاء بلاده ، ووقرت دونها آذان أعدائه ..

ولقد أبصر فريد بعد أن سدت السبل أمامه وأمام اللجنة الادارية للحزب فى أوربا فلم يستطيعوا شهود الملاحم الوطنية ، أبصر كيف ترسل الأمة الوفود ، وتريق الدماء فى سبيل تأييدها ونصرتها ، أبصر فريد جميـع ذلك فلا عجب اذا وجدناه يقابل أمر الله الذى لا مرد له — بذلك القلب الممتلىء بالآمال العظـام ، والثقـــة البالغة .. » .

واذا كانت حياة الرجال أيها السادة — خيرا للأمم التى يخدمونها ، فكم منهم من أفاد بمماته بمقدار ما أفاد بحياته .

ليس فريد بتلك الجثة الهامدة ، والنسمة الجامدة ، وانما هو تلك النفس الأبيـة ، والقـدوة الصالحة ، والذكرى الطيبة ، التى سيجددها بلى الأيام ، ويوالى نشرها انطواء العصور والأجيال ، فطوبى لمن سن سنة حسنة ، وطوبى لمن اقتدى بالعاملين .. » .

خاتمة

الحياة ذكريات ، وقد كتبت عن بعض الأقلام الثائرة لحق أصحابها علينا ، فى وقت هو أطيب أوقات الذكريات الباقيات ، وقت ثورتنا الموفقة الى غاياتها . انها توحى الينا بأن نذكر من سبقوا من رجالها المقدمين — جهادا فى سبيل الله ؛ وفى كل سبل الاصلاح جميعا ، بقيادة زعيمها المظفر : جمال عبد الناصر . الذى ما فتىء يذكر أهل الذكريات الطيبات ، فى كل المناسبات .

* * *

قد يتساءل القارىء — اذا ما وصل فى قراءته الى نهاية الكتاب — لماذا خصصت التحدث عن (أقلام ثائرة) بهؤلاء الأعلام الذين تحدثت عنهم ؛ وهل هم ذوو الأقلام الثائرة دون غيرهم ؛

اذا طرأ على خاطر القارىء هـذا السؤال فها هو الجواب :

أولا — أننى جعلت عنوان الكتاب (أقلام ثائرة) بصيغة التنكير ، وهى تعنى البعض ، ولم أعنـونه (الأقلام الثائرة) بصيغة التعريف التى تفيد الشمول وبهذا المقتضى اخترت هؤلاء الأربعة الذين تحدثت عن أقلامهم بكثير من التفصيل ، وافتتحت الحديث عنهم بعصر ثورة القلوب والألسنة ؛ والقلم — كما أسلفت القول — أحد اللسانين . كلاهما يؤدى وظيفة التعبير عما تكنّ الأفئدة ، وتخفى الصدور .

ثانيا — أن التحدث عن هؤلاء الأربعة يطوى فى البحث والتحليل كل العهود القلمية فى تاريخنا المعاصر . من عهد زعامة المشايخ ، فى الثورتين الأوليين ، على الفرنسيين والانجليز — الى عهد محمد على — الى عهد اسماعيل — الى عهد الثورة العرابية — الى عهد ثورة مصطفى كامل ، التى اخترت منها قلم الشيخ عبد العزيز جاويش — الى عهد ثورة سنة ١٩١٩ ، التى وقفت على بابها ولم أدخله .

ثالثا — أن هذا الكتاب لا تتحمل سعته أكثر ممن تحدثت عنهم بالتفصيل ، وعن غيرهم بالاجمال . ولو أنني أردت استيعاب ذوى الأقلام الثائرة من كتاب وشعراء فى تاريخنا المعاصر — مع مراعاة سعة الكتاب — لكنت فى ذلك كاتب فهارس — لا أكثر — وهذا ما لا أرضاه لنفسي .

* * *

قد يبــدو غريبا لأول نظــرة من القارىء الفاحص — ألا أذكر فيمن تحدثت عنهم من ذوى الأقـــلام الثائرة — رجلين عظيمين — واذن كانا متغايرين فى مظاهر عظمتهما — هما : أحمد عرابى ، و : مصطفى كامل .

أما أحمد عرابى فان الحديث عن قلم عبد الله نديم كاتب الثورة العرابية وخطيبها — فيه بعض الغنية عن التحدث عن أحمد عرابى بالذات . لأسباب :

أولا — أننى لا أؤرخ للثورة العرابية حتى أضع قائدها فى صدر التحدث عنها .

ثانيا — أن أحمد عرابى نفسه قد اختار عبد الله نديم لسان حال ثورته .

ثالثا — أن أحمد عرابى لم يكن من ذوى الأقلام ، فهو يشبه كل الشبه رجال العصر الثائر الأول فى تاريخنا المعاصر ، عصر زعامة المشايخ ، الذى أشرت له فى ابتداءات الكتاب (القلم واللسان) . وقد ذكر لنا سليم نقاش فى كتابه (مصر للمصريين) أن أحمد عرابى كان يلقب بين رجال الجيش (الشيخ أحمد عرابى) ، والفرق بينه وبين المشايخ الزعماء فى عصرهم أنه كان جنديا قوى البأس ، شجاع القلب ، ثائرا مصلحا ، يتطلب الاصلاح بحد السيف ، من الطغاة المستبدين .

ظفرنا من هذا القائد ببعض الخطب التى كان يحمس بها الجيش ، وببعض منشوراته السّرية التى كان يرسلها الى من كان يرى فى ارسالها اليهم — فائدة لثورته .

وأفضل ما تركه لنا هو مذكراته فى ثورته ، وقد طبعت مرارا ، وفى متناول الجميع .

* * *

أما مصطفى كامل ، فمرحى بمصطفى كامل ، ثائر عصره ، وخطيب عهده ، وكاتب زمانه ، موقظ الأقوام ،

النافخ فى روح النيام ، بعد فترة اليأس والقنوط التى أعقبت الثورة العرابية .

لم أكتب عن هذا الثائر بلسانه ، وبقلمه وجنانه ، لأنه قد كتب عنه ما أصبح معلوما بالضرورة ويحسب المؤرخ الكبير : عبد الرحمن الرافعى : أنه أوفى من كتب عن مصطفى ، وهو من تلاميذه الأولين فى الوطنية ؛ ومن غرسه فى اتجاهاته القومية .

التقطت من عهد هذا الزعيم الشاب الثائر — زعيما كاتبا أديبا ، لم يأخذ حقه مما هو جدير به ، هو الشيخ عبد العزيز جاويش ، وقد أسلفت فى ابتداء الحديث عنه ما نعرف به منزلته عند مصطفى ؛ وعند خليفته : محمد فريد : ومنزلته عند الشعب ، مما جعل الدكتور طه حسين وزملاء له — فى كتابهم (فصول مختارة من التاريخ) يعدونه من زعماء وقته . فقد جاء فى تعليقهم على كتاب (فلسفة الثورة) للرئيس جمال عبد الناصر ما نصه :

« وكان من زعماء هذه الفترة . محمد عبده ، ومصطفى كامل ، ومحمد فريد ، وعبد العزيز جاويش »

ويريدون بكلمة (الفترة) المدة الواقعة بين ثورة أحمد عرابى ، وثورة سنة ١٩١٩ .

* * *

لنا رجل هو علم الأعلام ، فريد فى اسمه ومعانيه ، من نوع مغاير لمن تحدثت عنهم ، هو (محمــد فريد) ولم أذكر عنه شيئا .

هذا الرجل لا يتحدث عنه فى معرض الحديث عن الأقلام وغيرها من أدوات التعبير ، لأنه فوق كل ذلك جميعا . هو عالم سماوى وحده فى اتجاهاته الوطنية . هو الذى وهب كل ماله لقضية بلاده ، فى سماحة وكرم وأريحية ، لم يعــرف لهــذا نظــير فى ســيرة الوطنية والوطنيين ، والثورة والثائرين .

* * *

ذكرت على سبيل الاستطراد فى مناسبات — بعض الكتاب هم أديب اسحاق ، ويعقوب صنوع ، وســليم عنحورى ، ولكننى لم أطل فيهم القول اكتفاء باليسير منه ، وكنت أود أن أدخل شعراء الحرية فى نسيج بحثى ولو بمثل ما كتبت عن الثلاثة السالفى الذكر ، ولكنى

— لوفعلت — لكنت أحد اثنين . اما أن ألم بشـــعراء الحرية كلهم ، من شيخ الشعراء اسماعيل صبرى الى وقتنا الحاضر ، ولكننى أكون بذلك مؤرخ فهارس ، وهو ما لا أرضاه كما أسلفت ، واما أن أختار منهم من أختار ، ولكن هذه الخيرة فيها كثير من الاجحاف بحق من لم أذكرهم .

لهذا لم أرد أن أتحدث عن الشعر الثائر فى تاريخنا المعاصر فى هذا الكتاب .

* * *

بقيت لى كلمة فى هذه الخاتمة ، هى تصوير درجة الثـــورة فى نفوس الذين كتبت عنهم ؛ وثورة النفوس تتفاوت فى حدتها ، وفى اتجاهاتها ، مهما كانت الزمالة ، ومهما ارتبطت القلوب برباط المحبة والاخاء .

هـــذا الذى أريد بيانه هو من الأسرار النفســـية ، التى لا يترجم عنها الا الظواهر — بما تكنّ الأفئدة وتخفى الصدور .

كان جمال الدين فى كل مواقفه ثائرا فهو فى بلاده فى ابتداء حياته — ثائر ومحارب ، وذو رأى صائب .

وهو فى الهند ثائر ، يسمع الهنود من لواذع الكلم بما أسلفت اقتباسه .

وهو على شاه ايران ثائر ، تصل به ثورته أن يخاطب السلطان عبد الحميد بأنه (عفا) عن الشاه لأجل خاطره !

وهو فى مصر ثائر باجماع من ترجموا له ، وأنه باذر بذور الثورة العرابية .

ثم هو فى روسيا ثائر ، يخاطب كبير علماء الاسلام فيها بقوله : يا ولد ، ستشهد أزمات الامبراطورية البريطانية ، وستصلى صلاة الجنازة على القيصرية الروسية .

ثم فى الاستانة ثائر ، يشتبك مع شيخ الاسلام تارة ، ومع أبى الهدى الصيادى تارة أخرى ، ويثير عليهما من لسانه حربا عوانا .

لا يعرف الريث ولا التمهل فى ثورته ، يريد أن ينفذ كل أمر بأسرع ما يكون من الخطو ، وبأقصر ما يكون من السبل .

* * *

أما الشيخ محمـــد عبده فقلد كان فى جبلته هدوء ورزانة تحيطان ثورته النفسـية بسياج من التروى ، ولم يكن ذا ثورة ملتهبة الا اذا اتصل بجمال الدين ، فاذا ابتعد عنه عاد الى ثورته الوقورة التى عرف بها ، والتى كان يسـير فيها سـيرا لمنطقى ، ذى المقـدمات والنتائج . ولذلك كان جمال الدين يقول له أحيـانا (انك مثبّط) كما وقع بينهما فى باريس لما أراد أن يعينا الخطة التى يسيران عليها ، كما أسلفت القول .

وجمـــال الدين لم يكن يرجـع عن رأى أعلنه ، أما الامام فكان يرجع أحيانا الى نقيض ما رأى ، اذا قام برهانه العقلى على صحته ، ولا أدلل عـلى ذلك بأكثر من أنه بعـد أن كتب ما كتب ، فى الحقـوق والواجبـات بين الحاكم والمحكوم وقد تحدثنا عنه فى ذلك كثيرا فيما سبقت — رأى بعـد طول التجارب ، ودرس الزمن ، أن يقول قولته المشهورة :

« .. أما أمر الحاكم والمحكوم فتركته للقدر يقدره ، وليد الله بعد ذلك تدبره ، لأننى قد عرفت أنه ثمـرة تجنيها الأمـة من غراس تغرسه ، وتقـوم على تنميته

السنين الطوال : فهذا الغراس هو الذى يجب أن يعنى به الآن . والله المستعان » .

ولذلك كانت طريقته فى طور حياته الأخير هى غرس هذا البذر الصالح ، فى أحاديثه ، وفى مقالاته ، وبخاصة فى تفسيره القرآن الكريم ، فقد اتخذ من هذا التفسير أفضل البذور الصالحة لتعليم القوم من أمور الحياة الكريمة — مالم يكونوا يعلمون .

* * *

أما عبد الله نديم فقد اعتراه من المحن فى مطلع حياته ما حجب نور قلبه الجرىء ، ولما أن تبدلت دنياه ، ظهرت للقوم مزاياه ، فصار فى الحياة شيئا مذكورا ، الى أن التحم بالثورة العرابية كاتبا وخطيبا ، وكان له فيها الأثر البالغ ، والنصيب الأوفى .

وبعد انقضاء الثورة الحربية بما انقضت به — لم تترك نديما ثورته النفسية ، فلقد كان ثائرا فى مهاربه ، ثائرا بعد أن عثر عليه وجىء به الى القاهرة ، ولذلك نفى الى (يافا) ولما عاد من منفاه هذا ظل ثائرا بقلمه الى أن أبعد الى تركيا التى انتهت فيها حياته .

أما عبد العزيز جاويش فأول ما عرفت صفاء نفسه ، وبياض قلبه — كان فى نادى الحزب الوطنى عام ١٩١١ ، وكان يخطبنا فى موضوع اجتماعى وقد تخلل خطبته مواقف بكى فيها الرجل بكاء مرا ، وثار وارتفع صوته ارتفاعا خيل الىّ أنه يريد أن يسمع به الناس جميعا ؛ الحاضرين منهم وغير الحاضرين .

صاحب هذه النفس الطيبة ، وهـذا القلب العامر هو الذى ثار بقلمه ثورة لا تهدأ ، ابتداء من جـريدة (اللواء) الى آخر ما تولى تحريره من صحف الحـزب الوطنى — بعد أن توثقت الصداقة بينه وبين مصطفى كامل ، ومحمد فريد — كما أسلفت .

على أننا لم نعرف للشيخ موقفا قلميا ، ولا خطابيا — كان فيه هادىء النفس ، ولذلك ، فانه كان يكتب المقال ويعلم أنه ربما أدى به الى السجن ، ثم لا يتقهقر ، بل يترك لسانه وقلمه يجريان الى الغاية التى حددها ، وليكن بعد ما يكون ..

نوفمبر ١٩٦٠

الفهـــرس

المكتبة الثقافية

- أول مجموعة من نوعها تحقق اشتراكية الثقافة .
- تيسر لكل قارئ أن يقيم فى بيته مكتبة جامعة تحوى جميع ألوان المعرفة بأقلام أساتذة متخصصين وبقرشين لكل كتاب .
- تصدر مرتين كل شهر فى أوله وفى منتصفه .

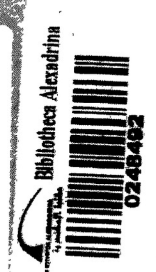
الكتاب القادم

قصة الحياة ونشأتها على ا

للدكتور

أنور عبد العليم

أول يناير ١٩٦٤



الثمن ٢ قرش

مطبعة مصر